

الكتاب الأول

ألقاء حضرة المصلح الموعود عليه السلام

في ٢٧ كانون الأول / ديسمبر ١٩٢٥ م

في الجلسة السنوية بقاديان

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. (آمين)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِي بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

وَلَدْخِلْنَهُمْ حَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩١﴾ (آل عمران: ١٩١ - ١٩٦)

أشكر الله تعالى على أنه بمحض فضله ورحمته حقق فينا مرة أخرى تلك الآية التي أقامها على صدق مبعوثه ومرسله في هذه الدنيا، إذ وفقنا مرة أخرى للاجتماع في هذا المقام؛ ليس لتحقيق أية عزة أو رغبة دنيوية، ولا لنيل مال أو ثروة، ولا من أجل راحة أو سكينة مادية، بل لوجه الله تعالى ولرفع ذكره وللثبات على الإيمان، وأدعو الله تعالى أن يصحح نياتنا ويصلح أعمالنا.

أتناول الآن - بتوفيق من الله تعالى - موضوعاً أردت طرحه أمامكم في هذه الجلسة السنوية، ولكن قبل الخوض في تفاصيله أود إخباركم أنه على جزأين؛ أولهما يتعلق بأمور ألمس ضرورةً للفت انتباه الجماعة إليها بمناسبة الاجتماع السنوي، وثانيهما موضوع علمي على شاكلة المواضيع العلمية التي تناولتها في السنوات الماضية. أبدأ اليوم بإذن الله تعالى الجزء الأول من الموضوع لأنه طويل نوعاً ما، ثم بعده سأفصل في الجزء الثاني.

(هنا قال بعض المسؤولين لحضرتة ﷺ: لا يزال الناس يأتون أفواجا، في حين أنه لم يبق مَتَسَعٌ في ساحة الاجتماع، لذلك نرجوكم

أن تحت الناس على الجلوس متلاصقين ومتراصين ليفسحوا المكان للواقفين خارج الساحة فقال ﷺ:)

كنا قد أعددنا ساحة واسعة للاجتماع هذه المرة، ولكن الله تعالى يؤكد لنا بأنه سيبعث عددًا من المستمعين يفوق توقعاتنا. فعلى الإخوة أن يجلسوا متلاصقين ومتراصين حتى يتمكن الواقفون خارج ساحة الاجتماع من الدخول إليها، ولكن يجب أن يتم ذلك دون إحداث ضجة أو ضوضاء، وعلى الإخوة جميعًا الاستماع إلى الخطاب بكل هدوء.

إنني مصاب بالسعال، وقد بح صوتي جراه. ومع أن أملي بالله تعالى كبير أنه سيوفقني لإلقاء هذا الخطاب على مسامعكم ولكن لا بد من اتخاذ الأسباب المادية أيضا ومنها هدوء الإخوة والتزامهم الصمت والإصغاء إلى الخطاب جيدا.

في البداية أريد أن أزيل بعض الشبهات التي نشأت في أذهان بعض الناس تجاه شخصي إذ نقل لي بعض الإخوة الذين قاموا بزيارة فروع الجماعة خارج قاديان أقوالا - دون ذكر أسماء قائلها، ولم أر حاجة لمعرفة أسمائهم - منها قولهم عني: "إنه يجلس عاطلا دون أن يحرك ساكنا، ولا نراه يقوم بأي عمل يذكر."

يضطرنى قولهم هذا لأذكر لهم - على خلاف طبعي - تفصيل ما أقوم به يومياً من أعمال راجياً أن تزول به شبهاتهم وظنونهم، لأن الشك والظن كالمسّم إن بقي داخل الإنسان أدّى إلى هلاكه ودماره. سأسرد أمامكم الآن تفاصيل جدول عمالي، وسأقتصر على جدول أعمال الأيام الأخيرة لأنها الأقرب إلى ذهني الآن ليعلم الإخوة أنني أبذل كل ما في وسعي للقيام بهذه الأعمال، مع التنويه إلى أنني مستعد للعمل أكثر من ذلك إن دلّني أحد على سبيل لتحقيق ذلك.

على أية حال، إليكم الآن ما أقوم به يومياً:

بعد تناول الفطور صباحاً أعطي دروساً في مدرسة السيدات التي أنشأناها حديثاً وسجلنا فيها عدداً من السيدات المثقفات بمن فيهن زوجاتي الثلاث وابنتي أيضاً. يعوزنا وجود معلّمات في جماعتنا من أجل دراسات دينية عليا للنساء لذلك يضطر الرجال لتدريسهن من وراء حجاب. أدرّسهن اللغة العربية في هذه الأيام، ويتولى المولوي شير علي تدريس الإنجليزية و"ماستر محمد طفيل" يدرّس الجغرافيا. الوقت المخصص لكل درس هو خمس وأربعون دقيقة، ولكن نظراً إلى كثرة المواد الدراسية وقلة عدد الأساتذة فإن جميع الأساتذة يعطون وقتاً إضافياً، فأدرّسهن لساعة وربع ساعة، ثم أتوجه إلى تلك

الغرفة التي يقابلني فيها الإخوة، وقد تغيرت حالتها في هذه الأيام إذ أخرجنا منها أثاثها ليتسع مكان اللقاء، أما في أيام عملي العادية فتكون هذه الغرفة مكتظة بالكتب. على أية حال، أصل إلى هذه الغرفة في الساعة التاسعة والربع صباحاً فيبدأ عملي المكتبي حيث أطلع على أمور الجماعة الإدارية وتقاريرها وخططها. يصلني البريد اليومي في الساعة العاشرة. أستلم يومياً من ستين إلى مئة وخمس وعشرين رسالة، وتستغرق قراءتها ساعتين أو ساعتين ونصف، لذلك لا أفرغ منها إلا في الساعة الثانية عشرة والنصف أو في الواحدة ظهراً فأذهب لتناول الغداء ثم إلى صلاة الظهر. ثم أعود لأنجز بعض الأعمال أو أقرأ تقارير الدوائر والمكاتب أو أفكر في بعض الخطط أو أطالع بعض المقالات العلمية المفيدة في تأليف كتب بدأتها مؤخراً. بعد هذا أذهب لأداء صلاة العصر، وبعدها أجلس قليلاً مع الإخوة، ثم إذا كان هناك موعد لإلقاء درس ذهبت إليه وإلا أمليت ردوداً على الرسائل حتى صلاة المغرب التي أصلها بالناس ثم أتعشى وأستمر في مطالعة بعض الكتب حتى صلاة العشاء. بعد صلاة العشاء أتوجه مرة أخرى إلى غرفتي المذكورة حيث أشتغل بترجمة معاني القرآن الكريم (إلى اللغة الأردنية) من الساعة الحادية عشرة إلى الثانية عشرة. ثم أطالع بعض الكتب إشباعاً لرغبتني في

القراءة غير أنها بالنهاية تفيد الجماعة. تستمر قراءتي هذه إلى الساعة الثانية عشرة والنصف أو الواحدة ليلاً. وبعد كل ذلك عندما أدخل إلى الفراش فلا تكتحل عيني بالنوم من شدة التعب والإرهاق، تتحرك الأشياء وتهتز أمام عيني لأن الإعياء والعناء يسببان لي رعشة تسري في أعضاء جسمي، وأخيراً وعلى هذه الحالة يأتي النوم. ثم يبدأ برنامج الأعمال نفسها بعد صلاة الفجر من اليوم التالي.

هذا هو برنامج أعمالي التي أداوم عليه منذ الثلاثة أو الأربعة أشهر المنصرمة. بالإضافة إلى ذلك فقد راجعت في هذه الفترة نفسها خطابي - الذي ألقيته في إحدى الجلسات الماضية - عن "إثبات وجود الله البارئ"، وكانت مراجعتي دقيقة جداً لدرجة أستطيع القول بأنني أعدت تأليفه، فكنت أعمل عليه حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. وعليه ففي مثل هذه الظروف لا أجد وقتاً للراحة بل حتى أثناء تناولي الطعام أكون مشغولاً في التفكير في بعض الاقتراحات والقضايا الهامة المتعلقة بالجماعة، وأحياناً تسألني زوجاتي عن بعض الأمور ظناً منهن أنني متفرغ - على الأقل أثناء تناولي الطعام - فأرد عليهن بجفاء: ألا يمكنكن أن تلاحظن من قسماات وجهي أنني أتفكّر في أمر هام؟ فنظراً لضيق الوقت أضطر في أحيان كثيرة إلى التفكير والتدبر حتى أثناء تناول الطعام. يقول الأطباء

والحكماء إن تناول الطعام بهذه الطريقة يؤدي إلى عسر الهضم، ولكن أتى لمن تهمّه أعمال جسام أن يلتفت إلى هذا النصح. ومع كل ذلك عندما سمعت أن البعض يقول عني: ما هي الأعمال التي أقوم بها؟ تذكرتُ مثال شخص خرج ذات يوم بحماره ومعه ابنه، فمراً بجماعة من الناس، فقالوا: يا لهذين المغفلين يتركان الحمار ويمشيان! لماذا لا يركبانه؟ فلما سمع هذا الكلام ركب الأب الحمار. فمضيا حتى مرّا بجماعة أخرى فقالوا: يا لهذا الأب القاسي الذي ركب الحمار وترك ابنه المسكين يمشي. فنزل وأمر ابنه بالركوب، فمضيا غير بعيد حتى مرّا بجماعة أخرى فقالوا: يا لهذا الابن العاق الذي ركب الحمار بنفسه وترك أباه الشيخ العجوز يمشي. فلما سمع ذلك قال لابنه: هلمّ يا بني نركب الحمار. فركباه ومضيا حتى مرّا بجماعة أخرى فقالوا: يا لهذين الظالمين القاسيين اللذين قد أثقلا بركوبهما على هذا الحمار المسكين! فلما سمعا ذلك نزلا عن الحمار وأخذا يتشاوران فيما يجب عليهما القيام به، لأنه إلى الآن قد اعترض على كل تصرف قاما به، فقررا في النهاية حمل الحمار على كتفيهما، ففعلا؛ ولكن الحمار أخذ يرفس ويركل بقوائمه حتى إذا مرّا على جسر فقد السيطرة عليه فوقع في البحيرة، فرجعا متأسفين على عدم تحقق رغبتهما بإرضاء الجميع.

والعبرة في هذه القصة هي: مهما قام الإنسان بأعمال جلييلة فلا بد أن يوجد من يعترض عليه وينتقده.

فالبعض من جماعتنا يقولون لي إنك لا تنفك تعمل ولا تستريح ولو قليلاً، وهناك آخرون يقولون لي: إنك لا تقوم بأي عمل يُذكر إذ لا يتراءى لنا شيء من هذا القبيل. وما دام عدم اطلاعهم على أعمالي التي أقوم بها يكفيهم دليلاً على أنني أهدر أوقاتي وأقضيها عاطلاً عن العمل، فلا بد أن يقولوا إن الله تعالى أيضاً لا يفعل شيئاً لأن أحداً لا يراه يعمل.

اعلموا أن الأعمال أنواع، بعضها أعمال ذهنية وبعضها بدنية. فمن يأخذه همُّ القوم كل مأخذٍ فلا بد أن يغرق في تفكير عميق في خطط ومشاريع من أجل ازدهار القوم ورفيهم، فلو رآه أحد هؤلَاء المعترضين على هذه الحال لقال: إنه يظلّ جالساً بلا عمل. هل من عاقلٍ يسعه القول بأن الحمّال يقوم بعمل شاق ولكن الذي يقوم بأعمال ذهنية وفكرية فلا يعمل شيئاً. الجهد الذهني أمر عظيم مرهق يشيب الإنسان بين ليلة وضحاها، في حين أن الأعمال البدنية تُكسب الإنسان قوةً وتجعله أقوى يوماً بعد يوم. العمل الذهني لا يُرى أو يُشاهد بشكل محسوس وملموس إلا أنه يمكن الاطلاع عليه وإدراكه من خلال المصاحبة والمرافقة، أما العمل البدني فبالإمكان مشاهدته.

عندما سافرت في العام الماضي إلى بريطانيا قابلني كثير من الإنجليز ولما رأوا انشغالي الكبير بأعمالي أشاروا عليّ - رغم كونهم غير مسلمين - أن آخذ قسطاً من الراحة وإلا فستدهور صحتي. إذاً لا يمكن لأحد معرفة الحالة الحقيقية لأي إنسان إلا بعد لقائه. لقد قال رسول الله ﷺ: "خيرُكم خيرُكم لأهله." (سنن ابن ماجه، كتاب النكاح باب حسن معاشره النساء)، مما يدل على أن شهادة الزوجه بحق زوجها معتبرة وتقع على جانب كبير من الأهمية، ولأجل ذلك يستشهد المسلمون بحق الرسول ﷺ بالشهادة المعروفة للسيدة خديجة رضي الله عنها.

قبل أيام قليلة رُفعتُ إليّ شكوى ضد أحد المبشرين بأنه تفوه بكذا وكذا من الأقوال. فلما سئل قال: لقد قلت إن الخليفة يتقل بكثرة الأعمال على من حوله لدرجة يشق بها عليهم الاستمرار معه طويلاً. فلا يمكن أن يقدر أعباء أعمالي إلا الذين يعملون معي.

لقد عودني الله تعالى منذ صغر سني على حبّ المطالعة والقراءة، والمراد من صغر سني هو الفترة ما بعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام. لقد ساءت صحتي بسبب هوايتي هذه وبلغتُ من الضعف درجة قال لي الخليفة الأول للإمام المهدي عليه السلام بعد التشاور مع الدكتور مرزا يعقوب بيك: ينصحك الطبيب بأن تنام يومياً سبع ساعات

متتالية وإلا فستدهور صحتك أكثر. ثم أكد ﷺ بنفسه أيضا تأكيدا شديداً عليّ بأن أنام سبع ساعات متوالية، ثم قال: تذكر جيداً أن من لا يستمع إلى نصح الطبيب يتضرر، فعليك أن تتقيد بهذا الأمر. ولكن مع كل ذلك ظلّ نومي يتراوح بين أربع إلى ست ساعات باستثناء أيام المرض الشديد، مما أدى إلى تفاقم الضعف العصبي عندي لدرجة يعرف من يصلي خلفي أنني أنسى أحيانا السور التي أقرأها يومياً في الصلاة، كما أتعرض لضعف البصر لدرجة يغشى الظلام أحيانا أمام بصري. ولكن رغم صحتي المتدهورة أعمل ليل نهار على النحو الذي بينته. ولما كانت مثل هذه الأفكار المذكورة تؤدي إلى بثّ وساوس في قلوب الناس لذلك رأيت أن الرد عليها أمرٌ ضروري.

قد يظن من حضر الجلسة أيضاً أنني ما عملت عملاً خلال هذه الأيام سوى إلقاء الخطابين في يومين، غير أنهم لا يدرون كم احتجت للمطالعة لإعداد هذين الخطابين؛ إذ أنني أحرص على تحري آراء المذاهب المختلفة في كل مسألة أبينها أمامكم، مما يضطرني إلى تصفح كثير من الكتب. فلربما قرأت ١٢٠٠ صفحة على أقل تقدير لتحضير الخطاب الذي أنوي إلقاءه اليوم. ولم أنقل أي أمر وارد فيه بلا سند إلا ما ندر. ولم أقرأ هذا الكم الهائل من الصفحات إلا

لمقارنة الأفكار والآراء. لا شك أن هذه الأمور لا تخطر ببالي إلا بمحض فضل الله تعالى، ولكن لا بد من القيام بأمر تجذب فضل الله تعالى، وهذا ما يقتضي التفكير والمطالعة والتدبر. فخطاب كهذا ليس نتاج شغل يوم أو يومين إنما هو نتاج تدبر طويل وتفكير عميق ومطالعة كثيرة. إضافة إلى ذلك إن خطابات الجلسة لا تُعدُّ للنشر بسهولة، إذ لا يتمكن الناسخ من تحرير الخطابات بشكل كامل عند إلقائها، بل تستغرق كتابتها قرابة شهر ثم أقوم بتصحيح هذه الخطابات المكتوبة حتى يستقيم الترتيب الذي سردت به الموضوع.

أود أن أتحدث هنا عن أمر آخر وهو: أنه يقال عني أنني لا أتيح فرصة اللقاء إلا لعدد قليل جدا من الناس. لقد ذكرت في إحدى الجلسات السابقة أن للقاء فوائد جمّة، لذلك على الرغم من ازدياد أشغالي أثناء الجلسة أخصص للإخوة وقتا للقاء، لأنه تنشأ لديّ معرفة شخصية ببعض الذين يقابلوني على انفراد منذ السنة الأولى، وبعضهم في السنة الثانية، وبالآخرين في السنة الثالثة. حتى صرت أعرف الآن ألوفاً من أفراد الجماعة معرفة شخصية وأستطيع التعرف عليهم بكل سهولة. وبالإضافة إلى هذا اللقاء الجماعي أتيح للإخوة فرصة اللقاء الشخصي حسب الضرورة أي إذا كان هناك حاجة ملحة له، كأن يريد أحد أن يتكلم في أمر لا يسعه التكلم فيه أمام

الناس. ولكن الذي يحدث في كثير من الأحيان أنه عندما تعطى لبعض الإخوة فرصة اللقاء الشخصي وفق طلبهم يأتون ويقولون جئنا لنسألکم الدعاء لنا. كان بإمكانهم أن يقولوا ذلك في المجلس العام، أما بفعلهم هذا فقد شغلوا من وقتي ربع أو ثلث ساعة تقريباً. وعليه فإن هذه اللقاءات أيضاً تندرج تحت أعمالي التي أقوم بها. وإني أعطي وقتاً لمن يريد اللقاء على انفراد لأمر هام. ولكن بما أنني لاحظت من خلال خبرتي السابقة أن الناس يقولون لي في اللقاء الشخصي ما يمكنهم أن يقولوه في المجلس العام، لذلك أوصيت الآن سكرتيري الخاص أن يتأكد من وجود أمر هام يقتضي ذلك، وعندما يتأكد لي هذا الأمر أعطي وقتاً للقاء شخصي لطالبه. يمكنكم إذاً من خلال الأعمال التي عدّتها أمامكم أن تقدّروا أنني لا أجد لحظة فراغ في أوقاتي كلها. أنا مضطر لأشتغل ضمن حدود الـ ٢٤ ساعة اليومية، ولا أقدر أن أصير اليوم ٤٨ ساعة، ولكن باستطاعتي أن أصرف أقل وقت ممكن في قضاء الحوائج الضرورية كالأكل والشرب وقضاء الحاجة والنوم وغير ذلك ولكن لا يمكنني أن أغلق باب هذه الحوائج الضرورية بشكل نهائي. ففي ظل هذه الظروف والأوضاع لو أعطيت لأحد وقتاً للقاء شخصي دون أن يكون ثمة داع قوي له فلا بد أن يسبب ذلك حرجاً في أعمالي الأخرى.

ثم لاحظت أيضا أن شخصا يأتيني للقاء فيظل ماسكا يدي لمدة ربع ساعة أو ثلثها ويكرر: رجاء ادع لي. وأنا لا أستطيع أن أردّ عليه كل مرة بل أحيانا أقول له: سوف أدعو لك، ثم أصغي إليه بصمت. لكنني أريد أن أضع حدا لهذا الأمر أيضا، لأن الامتناع عنه يفيدكم في النهاية، إذ سأتمكن من تخصيص الوقت الكافي للأمر الهامة الأخرى للجماعة. فلو طلب أحد مني الدعاء - خلافا للأسلوب المذكور آنفا - دون تضييع وقتي فسينال مني انتباها أكثر لأنه بهذه الطريقة يقدرّ وقتي وأعمالي. ولكن الذين يظلون ماسكين يدي لمدة طويلة فلا أعرض عنهم بل أقابلهم بوجه طلق وبشوش ولكن عليهم أن يعرفوا أنه لا بد أن يتأخر أمر من أمور الجماعة بسبب هذا الأسلوب ولا بد أن يثير ذلك قلقي واضطرابي، وإنني أريد أن أضع حدا لمن يتبع هذا الطريق في اللقاء. ولكن إذا كان ثمة أمر هام فإنني مستعد كل الاستعداد للمقابلة في أي وقت من أوقات الليل والنهار. إنني أعتبر اللقاء أمرا ضروريا جدا، وفي الوقت نفسه يخطئ من يتسبب في إهدار وقتي، كما يخطئ من يقول بعدم ضرورة اللقاء، بل ينبغي عليكم القدوم إلى هنا والاجتماع بي في لقاء جماعي كلما سنحت لكم الفرصة. ولكن إذا كان ثمة أمر خاص ولا يمكن

ذكره أمام الناس كوجود مرض معين أو ظروف خاصة أو أي أمر هام آخر فإنني عندها جاهز للقاء على انفراد.

ولقد تكرر حدوث ظاهرة أخرى في هذه اللقاءات الآن أيضا وهي أن أفراد الجماعة يأتونني بأسئلة مكتوبة لديهم فيطرحونها علي ويطلبونني بالرد عليها أثناء اللقاء. يؤسفني كثيرا تصرفهم هذا إذ لو طرحوها في المجلس العام لاستفاد غيرهم أيضا، كسؤال أحدهم: كيف يمكن المحافظة على التركيز في الصلاة؟ لا بد أن تكون الإجابة على هذا السؤال مفيدة للآخرين أيضا ولكن السائل يطرح مثل هذا السؤال في اللقاء الشخصي ويحرم عامة الناس من الاستفادة منه.

فلا يهدف قولي هذا إلا إلى وضع حد لمثل هذه الطرق في اللقاء، وإلا فإن أمر اللقاء قد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة ١١٩) أي يجب أن تكونوا على لقاء دائم مع الذين يحظون مع الله تعالى بعلاقة صادقة وحقيقية. فاللقاء ضروري جداً لدرجة أن المسيح الموعود عليه السلام كان يقول: "من لا يأتي للقاءنا نخشى على إيمانه."¹

¹ انظر الملفوظات ج ١ ص ٢٠٥. (الناشر)

ومن ناحية أخرى يحضر هنا بعضهم ويجلسون في الخلف بعيداً ثم يغادرون ظانين أني رأيتهم. فأوضح لهم بأن ذلك يصعب علي كثيراً لأن الله تعالى أعطى أفراد عائلتنا عيوناً مبطّنة لا نتمكن من فتحها كثيراً ولا نستطيع بسهولة أن ننظر نحو الأعلى حيث تُثقل البطانة طبقة الجفون العليا فتجعلها منسدلة وفتحها الكامل يسبب ألماً. فأنصح كل من يأتي إلى هنا أن يقابلي ويخبرني عن مدة بقائه ويطلعني على أحواله وأحوال منطقتة مما يزيدني اهتماماً بهم ويعثني على الدعاء لهم.

هذا، وأريد أن أزيل شبهة أخرى وهي متعلقة بظنّ بعض الإخوة الذين يقولون: ما الفائدة من الكتابة إلى الخليفة لطلب الدعاء إذ أني له أن يقوم بالدعاء لهذا العدد الهائل من الناس؟

فمن يظن أنني كلما تلقيت رسالة من أحد الإخوة جلستُ نصف ساعة أو ساعة في الخلوة للدعاء له فإنه يجانب الصواب إذ لا أستطيع فعل ذلك. أتلقى يومياً نحو مئة رسالة للدعاء بما فيها رسائل أهالي قاديان أيضاً، أضف إلى ذلك طلبُ بعض الإخوة مني أن أدعو لهم باستمرار؛ فلو أضفنا هذه الرسائل أيضاً إلى البريد اليومي لازداد مجموع طلبات الدعاء.

فبالإضافة إلى الدعاء للإسلام وما يحتاج إليه في هذا العصر لو خصصت دقيقة واحدة لكل واحد من أصحاب رسائل الدعاء لاستغرق الدعاء ثلاث أو أربع ساعات في المرة الواحدة. لذلك فإنني أفعل كما كان يفعل المسيح الموعود عليه السلام؛ إذ كان دأبه الدعاء لأصحاب الرسائل لدى قراءتها مباشرة. هذا الأسلوب يؤدي إلى قراءة الرسائل بتأن واستيعاب أكثر، وعليه فقد حصل معي غير مرة أنه بعد قراءتي للرسائل إذا قرأ سكرتيري الخاص إحداها قلت له ليس ذلك ما ورد فيها بل نص الرسالة كذا، وتثبت صحة قولي في النهاية. خلاصة القول، أركز على قراءة الرسائل أكثر حتى أكون مستوعبا لمضمونها، وأتبع هذا الأسلوب للدعاء. والطريق الثاني الذي دأبت عليه هو أنني أدعو في النوافل؛ وإن كنت قد واطبت منذ فترة يسيرة على الدعاء في كل صلاة فرض أيضا لازدهار الجماعة وإزالة العقبات والمشاكل التي تعترض سبيلها. وفي هذا الدعاء أصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسيح الموعود عليه السلام وأدعو أن يرفع الله درجاته وأن يحقق بنا جميع الأهداف التي بعثه الله تعالى لأجلها، وأن يقبل صدقه غير المؤمنين به والمعارضون عليه، وأن يزيل الله تعالى جميع المشاكل والصعوبات التي تتعرض لها الجماعة ويهيئ من لدنه أسبابا لازدهارها. كما أدعو يوميا منذ أن حصلت أحداث الاستشهاد في

كابول أن يعين الله تعالى إخواننا القاطنين في تلك البقاع وينصرهم ويحفظهم من شر الأعداء. كما أدعو أن ينشر الله تعالى صدق الإسلام في الشرق والغرب ويدخل فيه الناس كافة. ثم أدعو للجماعة كلها وخلاصة هذا الدعاء هو أن يزيل الله تعالى من طريقهم جميع أنواع العقبات المالية والمادية والأخلاقية والعلمية والروحانية ويهيئ لهم أسبابا للرقى والازدهار. ثم أدعو لبعض القضايا الهامة للجماعة. ثم أدعو: اللهم نجّ كل من كتب إلي سائلا الدعاء من الآلام والأحزان، وافتح أمامهم أبواب الراحة على مصراعيها، وهنا أدعو لبعضهم - بذكر أسمائهم - من الذين قد خلّفت معاناتهم أثرا خاصا في قلبي.

ثم أدعو هذا الدعاء: اللهم إني أسألك أن تنزل أفضالك لا على أفراد جماعتنا الموجودة الآن فقط بل على أولادهم أيضا. ثم أدعو لجميع العاملين والموظفين في دوائر الجماعة أن يهبهم الله تعالى البصيرة لأداء واجباتهم وأن يمنّ عليهم بأفضاله ويعلمهم طرق المواساة والتعاون مع الآخرين وأن يجعل أفراد الجماعة مثلا للتعاون والتراحم فيما بينهم. ثم أدعو للمبلغين ولأهاليهم. ثم أدعو لمن يزرحون تحت وطأة المصائب والمعاناة. أبتهل بكل هذه الأدعية خمس مرات يوميا في الفروض والنوافل أيضا. مع كل ذلك لو قال

أحد إنني لا أدعو للجماعة فقلوه هذا يشابه قول قائل في وضح النهار إن الشمس ليست طالعة. إن تسعين بالمئة من الناس لا يدعون لأنفسهم كما أدعو لهم.

بلغني أن بعض الناس يقولون: بما أنه يجوز الاختلاف مع الخليفة لذلك نختلف معه في هذا الأمر وذاك.

لقد ذكرت لكم فيما سبق وأكرر قولي ههنا أيضا إنه يجوز الاختلاف مع الخليفة، ولكن لكل قول دلالة معينة وليس من الحكمة في شيء تحميله ما لا يحتمل. هل يمكن لأحد القول إن كل ما يراه الطبيب صحيح في جميع الأحوال؟ كلا! بل الأطباء أيضا يخطئون عشرات المرات، مع ذلك لا يقول أحد: من الآن فصاعداً، سنكتب وصفتنا الطبية بأنفسنا لأنه من الممكن أن يخطئ الأطباء، كلا، إن رأي الطبيب لا بد أن يكون هو الأصوب من رأينا لأنه درس الطب بشكل منهجي. كذلك الحمامون، فإنهم أيضا يخطئون عشرات المرات، مع كل ذلك لا يؤخذ في المحاكم والقضايا إلا برأيهم. كذلك فمن يتقن عمله أكثر من الآخرين لا بد أن يكون رأيه في ذلك المجال أصوب من غيره. وعليه فلا بد أن يكون للاختلاف حدود. يجب إذاً على من يبايع على يد الخليفة أن يفهم أن الله تعالى بنفسه يجعل الخليفة. وإن الخليفة يعمل ليل نهار على

إرشاد الناس والتفكير في المسائل الدينية لذلك لا بد من احترام رأيه في المسائل الدينية. ولا يجوز لأحد الاختلاف مع رأيه إلا إذا ثبت عنده بما لا يقبل الشك - كما في $1+1 = 2$ - أن قوله هو الأصوب. بالإضافة إلى ذلك ثمة شرط آخر وهو أن يعرض اختلافه على الخليفة أولاً قائلاً: إن أمراً كذا وكذا يثير لدي شبهات، ويطلب من الخليفة إزالة تلك الشبهات والإشكالات، كما يقول المريض أحياناً للطبيب إنني أشكو من كذا وكذا فعليك الآن أن تمنع النظر في المرض. فيجب على من يختلف مع الخليفة عرض هذا الاختلاف عليه بدلاً من إشاعته بين الناس؛ فلو أجاز لكل واحد أن ينشر كل ما يخطر بباله لما بقي للإسلام من باقية، لأنه لا يقدر كل شخص على اتخاذ القرار الصائب. ولو كان ذلك صحيحاً لما ورد في القرآن الكريم أنه إذا جاءكم أمر من الأمن أو الخوف فعليكم أن تردوه إلى أولي الأمر^٢. أفلا يخطئ أولو الأمر أيضاً؟ لا شك أنهم أيضاً يخطئون ومع ذلك يحظى رأيهم بالاحترام. وإذا كنتم تقيمون لرأيهم احتراماً فلماذا لا تكونون ذلك للخلفاء أيضاً. لا يستطيع المرء أن يصل إلى الرأي السديد في جميع الأمور. في إحدى المرات قال

² يشير ﷺ إلى الآية التالية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَاكْفَرُوا بِهِ وَإِذْ جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْرِ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٤). (الناشر)

المسيح الموعود عليه السلام: لو تزوج أحد - حفاظاً على تقواه - من مئة زوجة جاز له ذلك، فسمع أحد هذا القول وأخذ ينشره قائلاً: لقد قال المسيح الموعود عليه السلام: لم يعد الاقتصار على زوجات أربع قائماً بل يمكن للإنسان أن يتزوج إلى مئة زوجة، فلما سئل عليه السلام قال: إنما أردت من قولي هذا أنه إذا ظلت زوجات أحد يتوفين وظل هو يتزوج مراعيًا التقوى جاز له ذلك مهما كان عمره.

فليس الجميع قادرين على الفهم الصحيح لجميع الأمور، فلا بد من المحافظة على الوحدة ونظام الجماعة بحيث لو اختلف أحد مع أخيه عرض أمره على الخليفة، ومن لا يفعل ذلك بل يضمّر مثل هذه الاختلافات ثم ينشرها بين الناس فهذا هو التمرد بعينه ويجب على مثل هذا الشخص أن يصلح نفسه.

ثم أريد أن أوجه نصيحة أخرى وهي أن النارجيلة أو التدخين شيء سيئ ويجب على أفراد جماعتنا أن يقلعوا عنه. لقد قال لي بعض الإخوة: إنهم قابلوا بعض الملهمين من الله مع أنهم مدخنون، فتذكرت بهذه المناسبة طرفة كان المسيح الموعود عليه السلام يذكرها وهي أن بعض التجار الهندوس كانوا مجتمعين في مكان ما فأخذوا يقولون: من أكل نصف رطل من حبات السمسم نال جائزة قدرها خمس روبيات. ومرّ بهم فلاح قروي، فقال: هل تشترون أكل

السمسم بقشره أم مقشورا؟ ذلك لأنه لم ير أي صعوبة في أكل هذه الكمية من السمسم فتعطى لآكلها جائزة. فقال له التجار الهندوس: دعك من هذا، فلا نتحدث عن أمثالك. إذا يوجد اختلاف في طبائع الناس بحيث قد يكون الأمر العسير لدى البعض شيئا هيناً ويسيراً عند غيرهم. وإذا سلّمنا جدلاً أن المدخن أيضا يتلقى إلهاماً من الله تعالى فلا بد من القول إن إلهاماته لن تكون من درجة عالية وذلك لقول رسول الله ﷺ: مَنْ أَكَلَ ثَوْماً... فليعتزل المسجد، لأن الملائكة لا تنزل بسبب رائحة الثوم. كما قُدّم إلى النبي ﷺ الثوم النيء فلم يأكله، فسأله أحد الصحابة: هل علينا أيضا الامتناع عن أكله؟ فقال له: كُلْ فَإِنِّي أَنَا جِي مَنْ لَا تُنَاجِي^٣.

فكيف يمكننا أن نسلم بعد هذه الأحاديث أن الملائكة تنزل على من يدخن السيجارة أو النارجيلة أو غيرها في حين أن رائحة التدخين أسوأ من رائحة الثوم، والرسول ﷺ يقول عن شيء رائحته أقل كراهة من التدخين إنني لا آكله لأن الملائكة تأتيني. فإذا كان الرسول ﷺ يحتاط إلى هذا الحد فإلى أي حد يتوجب أخذ الحذر واجتناب التدخين لمن يدعي تلقي الإلهام أو يرغب في تلقيه من الله

³ انظر: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة. (المترجم)

تعالى؟ من ذا الذي لا يرغب في تلقي الإلهام من الله تعالى؟ وحيث أنه لا يوجد من يكره تلقي الإلهام فلا ينبغي لاحد أن يدخن. أقول مرة أخرى: من الممكن أن يتلقى المدخنون أيضا إلهاما ولكن هذا الإلهام لن يكون من درجة عالية، ونستطيع القول بأنه لو لم يكن مدخنا لتلقى إلهاما أعلى درجة من إلهاماته الحالية. قد تنزل عليه ملائكة أقل درجة، وقد قال المسيح الموعود عليه السلام: قد تتلقى العاهرة أيضا إلهاماً، وعليه أفلا تأتيها الملائكة؟ فيمكن إذاً أن ينزل مثل هؤلاء الملائكة على المدخنين أيضا. فإن كان أحد المدخنين يتلقى إلهاما من الله تعالى قلنا له: إنه ليس بأمر يبعث على السرور لأنه لو أقلع عن التدخين لنزلت عليه ملائكة أعلى درجة من التي تنزل عليه الآن.

بعد هذا أذكر أمرا يتعلق باسم واحترام أحد الإخوة. في مجلس الشورى السابق أثير سؤال يتعلق بمدير جريدة "نور"، فقلت - ظناً مني أن السؤال قد أثير بإيعاز من المدير نفسه: إذا كان هذا من كلام المدير المذكور فقد أخطأ. إلا أنني علمت فيما بعد أنه لم يقل هذا الكلام. لذلك حذفنا هذا الجزء من التقرير الذي نُشر لاحقا. ولكن

للأسف نشره مدير جريدة "فاروق" بدون حذف الجزء المذكور، وما يؤسفني أكثر أن ما قلته في ذلك المجلس كان دفاعاً عن جريدة "فاروق"، ولكن مع دعمي لها لم يصبر مدير "فاروق" فحرك قلمه ضد أخيه ونشره في جريدته. فيما أن الأمر قد نشر في الجريدة وانتشر بين الجميع لذلك أردت عليه أمام الجميع في هذا المجلس العام، وإذا استاء أحد من هذا الأمر الآن فيجب أن يتحسر على نفسه التي سؤلت له هذا الفعل⁵.

والآن أريد أن أتكلم عن الوضع المالي للجماعة. إن الحالة المالية للجماعة ضعيفة جداً. لا شك أن الإخوة يساعدون بكل ما في وسعهم إلا أن ذلك ليس كافياً لتغطية حاجاتنا. ليس القصد من "حاجاتنا" حاجاتي الشخصية بل المراد منها حاجات الجماعة. والحالة الراهنة صعبة للغاية وقد يؤدي طول استمرارها إلى الفتنة. وبيانها كما يلي: لم يتلقَّ العاملون في مكاتب الجماعة مرتبهم منذ ثلاثة أشهر، وأعرف أن خمسة وعشرين أو ثلاثين منهم إلى الآن قد أصابتهم الفاقة. لقد جاءني في أحد الأيام صحابي قديم من صحابة المسيح الموعود عليه السلام وعيناه تذرغان الدموع فأخبرني قائلاً: إني أعاني

⁵ لقد اعترف مدير جريدة "فاروق" بخطئه فوراً وندم، فبراً ساحتها فلا لوم عليه الآن. (منه)

الفاقة والعوز منذ أيام، وكثيرا ما يُغمى عليّ أثناء العمل. لقد هممت أن أهجر بيتي وأتوجه إلى الغابة ولكن لا يسعني قبول هذه الفكرة أيضا لأنها قد تُعتبر انتحارًا.

وتعرفون جيدًا أنه إذا بلغ الوضع هذا الحد فلا يجوز التأجيل في تداركه. لا شك أن الإخوة في فروع الجماعة أيضا يواجهون مشاكل مالية كثيرة فهم أيضا ليسوا أغنياء وأثرياء، ولكنني أسألم هل يعانون الضيق الذي نتعرض له؟ بلغت حالتي في أحد الأيام درجة شعرت فيها وكأنني سأفقد العزيمة تمامًا وكدت أن أمزق ثيابي من شدة الهول. لا شك أن الجماعة تُكثر من الإنفاق في سبيل الله مع ذلك لا بد لها أن تتحمل بنفسها كل هذه الأعباء إذ لن نستجدي الآخرين شيئًا. فمع أن الجماعة قد تحملت أعباء جمّة ولكنني أستطيع القول إن جماعتنا لم تقم بعد بالتضحية المالية بقدر تضحية الجماعات الإلهية قبلها.

لقد زرت في روما ذلك المكان الذي لجأ إليه المسيحيون هربا من اضطهاد أعدائهم وظلمهم. تمتدّ مساحة هذا المكان إلى عشرين ميلا تقريبا، ولقد احتفى فيه المسيحيون تاركين بيوتهم وأموالهم وظلوا يكابدون الجوع والفاقة. وسُمي هؤلاء في القرآن الكريم بأصحاب الكهف والرقيم. كانت إقامتنا هنالك بضع ساعات فقط، ومع ذلك

لم يُطَقَّ بعض رفقاءنا المكوث هناك، بينما كان المسيحيون قد اضطروا للبقاء هناك لسنوات طويلة في زمن الملك "دقيانوس"^٦. إنها أنفاق طينية ضيقة ومظلمة تتخللها قبور بعض أصحاب الكهف الذين قُتلوا على أيدي جنود الملك، وكُتِبَ على شواهدها تاريخ قتل كل واحد منهم. فلقد ترك هؤلاء كل شيء لله تعالى وتكبدوا معاناة تقشعر لتصورها الأبدان اليوم. أما أنتم فتؤمنون بأن المسيح الموعود عليه السلام أكبر درجة من المسيح الناصري عليه السلام، فلا بد أن تكون تضحياتكم أكبر بكثير من أتباع المسيح الناصري عليه السلام، ولكن هل بلغت تضحياتنا حتى هذا الحين المستوى المطلوب؟ لقد قال المسيح الموعود عليه السلام من لا يشترك في نظام الوصية ففيه نفاق^٧، وحدد مقدار تبرع

^٦ دقيانوس هو الملك الظالم الذي حدثت في عهده قصة أصحاب الكهف. (الناشر)
^٧ لقد استنتج المصلح الموعود عليه السلام ذلك مما كتبه المسيح الموعود عليه السلام في كتابه "الوصية":

"وقد يعترض علينا في ذلك من غلب عليه سوء الظن فيعتبر هذا النظام مبنياً على المصالح الشخصية، أو يحسبه بدعة. ولكن اعلموا أن الله تعالى يفعل ما يشاء في شؤونه وأفعاله. ولا ريب أن الله أراد أن يميز المنافقين من المؤمنين بهذا النظام. وإننا لندرك أن الذين يطلعون على هذا النظام الإلهي، ويسارعون بدون تردد إلى تقديم عشر أملاكهم في سبيل الله، بل ويؤيدون حماساً أكبر من هذا، إنما يُرهنون على صدق إيمانهم. يقول الله عزوجل: ﴿الم، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.... لقد قدر الله تعالى في عصر رسول الله عليه السلام بعض الابتلاءات البسيطة أيضاً.. فقد سنّ - مثلاً - ألاّ يستشير أحدٌ رسول الله عليه السلام، مهما كان نوع

الوصية بالعُشر^٨ وذلك علاوة على التبرع العادي الذي يقوم به حيناً بعد آخر. أما أفراد الجماعة الآخرون فيتبرعون بنسبة ١/١٦ من أموالهم، ولكن البعض لا يدفعون بهذه النسبة أيضاً، بل يدفعون أقل منها، وبعضهم لا يتبرعون بتاتاً، ومع ذلك يقولون: علينا أعباء كثيرة، فكم هي كبيرة المهمة التي أخذناها على عاتقنا! أما الذين يقولون: علينا أعباء كثيرة فمثلهم كمثل الذي يتوجه ليحمل فيلا ولكنه لدى حمله يقول: ما أثقله! أو كالذي يريد أن يمسك بجمرة من النار إلا أنه يقول: والله إنها لتحرق اليد. فالقوم الذين يقولون بأنهم يسعون لنسف العالم كما ينسف الديناميت الجبل لا بد لهم أن يتفجروا كالديناميت* ويدمروا أنفسهم. هل يمكن للبارود أن ينسف شيئاً آخر بدون أن ينسف نفسه أولاً؟ أو هل يمكن للديناميت أن يحدث أي تغيير بدون تدمير نفسه هو؟ فإذا كان ذلك مستحيلاً فلا بد

استشارته، ما لم يقدم له هدية، فكان في ذلك أيضاً ابتلاء للمناققين. وإننا لنشعر أن أعظم المخلصين الذين آثروا الدين على الدنيا حقيقةً سيميزون عن الآخرين نتيجةً لهذا الابتلاء، ليكون ذلك دليلاً على أنهم صدقوا ما بايعوا عليه وبرهنوا على إخلاصهم. لا شك أن هذا النظام سيكون ثقيلاً على المناققين، وسيُفتضح به أمرهم." (الوصية، الخزائن الروحانية ج ٢٠ ص ٣٢٧ - ٣٢٨). (المترجم)

^٨ الوصية، الخزائن الروحانية ج ٢٠ ص ٣١٩. (الناشر)

* المراد من التحول إلى الديناميت هنا هو أن يمتلئ الإنسان حماساً يجعله يبذل كل ما في وسعه من أجل نشر الإسلام وفتح العالم وجعله خاضعاً عند أقدام المصطفى ﷺ غير مكترث بالصعوبات والعراقيل مهما كثرت واشتدت. (الناشر)

أن تتبعوا الطريقة نفسها. فإن كنتم تريدون غزو العالم رغم قلة عددكم فلو تغزوه إلا إذا تحولتم إلى الديناميت، لأن قليلا من الديناميت يقرب منطقة واسعة. وهذا يعني أنه ينبغي أن نتفجر قبل تفجيرنا للعالم.

هل أدركتم عظم هذه المهمة التي كُلفتكم بأدائها؟ وهل وصلتم إلى هذه الحالة المرجوة والدرجة المنشودة؟ فإذا لم تصلوا بعد إلى هذه المرتبة فهل يليق بكم - وأنتم تريدون فتح العالم كله - أن تقولوا: علينا أعباء وأثقال كثيرة. يجب أن يراجع كل واحد نفسه ليرى مدى سعيه لتحقيق هذا الهدف المنشود الذي أصبح لكل أحمدي الهدف الأول الذي خلق من أجله. لو استعرضتم هذا الوضع ثم نظرتم إلى هذه الأعباء التي تتحملونها إلى الآن لأدركتم أنها لا تساوي شيئا نظراً إلى عِظَم مهمتكم الرئيسة.

لا أقول إن الجميع لا يستشعرون بعظمة الهدف الذي يريدون تحقيقه، أو لا يعرفون حجم السعي الواجب عليهم بذله، بل على عكس ذلك فهناك بعض الإخوة مخلصون جداً، فهناك على سبيل المثال أحمدي مخلص يتقاضى راتباً قدره ستون روبية وقد أوصى بثلاث دخله، مما يعني أنه يتبرع بعشرين روبية شهرياً. فلما أعلنت عن مشروع التبرع الخاص تبرّع بمرتب ثلاثة أشهر ثم اضطر للاستقراض للإنفاق على نفسه، فكتب لي بعد ذلك رسالة يطلب مني السماح بالتبرع بعشر دخله بدلا من الثلث إلى حين سداد الدين كله، ولكن بعد خمسة أو ستة أيام تلقيت منه رسالة أخرى أبدى فيها أسفه الشديد على الرسالة الأولى وتعهد

مجددًا بالتبرع بثلاث مرتبه. فهؤلاء المخلصون كثر في الجماعة بل هم الذين يمثلون الجزء الأكبر منها. وإنني أوجه نصيحتي هذه إلى بقية الأحمدين ليقصدوا هؤلاء المخلصين. فينبغي أن نسعى لأن لا ندخر لأنفسنا ذرة واحدة من هذه الدنيا، وأن نعدّ ما أنفقناه في سبيل الله هو المال الباقي لنا. مما يعني أنه يجب علينا بذل كل ما نملكه في سبيل الله تعالى، اللهم إلا النزر اليسير الذي نضطر إليه من أجل البقاء على قيد الحياة وستر العورة وغيرها. لاحظوا عظمة هذا الوعد الذي تقطعون عند البيعة فهو يعني أن أنفسنا وأموالنا وأعراضنا وراحتنا وثرواتنا وعقاراتنا وكل ما هو لنا قد صار لله رب العالمين. وهذا هو معنى البيعة وخلاصتها أن كل ما كنتُ أملكه قد صار لله تعالى الآن. فعلى سبيل المثال إذا كان مرتب أحدنا مئة روية فهو ليس له بل لله تعالى. تتضمن كلمات "كل ما أملكه" نفسه أيضا فهي أيضا ليست له الآن، وتشمل تلك الكلمات زوجته وأولاده أيضا فهم الآخرون ليسوا له الآن، وإذا كان يتمتع بمنصب أو مرتبة دنيوية فهي أيضا لم تعد له. فبعد هذا العهد إذا قال أحد رداً على مشروع التبرع الخاص إنه عبء وثقل كبير فيجب أن يخبرنا ماذا كان يقصد من عهده عند البيعة؟ وماذا كان يعني؟ فلو قال إنه لم يقصد عند البيعة بيع جسده كله بل أراد إحدى رجليه أو يديه أو لم يقصد جلاً ماله بل أراد قدرًا معينًا منه فيمكن أن يؤخذ ذلك في الاعتبار، ولكنه إذا تعهد بأن يقدم كل ماله ونفسه وأهله وأولاده وجميع مناصبه فكيف

يسوغ لنفسه أن يقول الآن: وقعتُ تحت أعباء ثقيلة؟ والعبء هو أن يضطر المرء لتقديم أكثر بكثير مما وعد، أو يعد بشيء ثم يضطر لتقديم أشياء أخرى إضافية. أما هنا فتعهد بتقديم كل ما له، فكيف يمكنه القول عند الوفاء بوعدده إنه عبء كبير؟ أتوقع الآن أن الإخوة كلهم سيسعون لإدراك المعنى الصحيح للبيعة والعمل بها، ولن يتأخروا عن إنفاق كل ما يملكونه في سبيل الإسلام، وسيظلون ينفقونه في سبيل الله بانسراح تام ما دامت الحاجة تقتضي ذلك، لأنه لا يكتمل إيمان أحدكم ما لم يشعر بالانسراح التام عندما يضحى بكل ما يملكه في سبيل الإسلام. أدعو الله تعالى أن يوفقكم لذلك.

لما كانت نفقات الجماعة الآن قد زادت عن ميزانيتها بأكثر من أربعين ألف روية لذلك اقترح لحل الأزمة المالية الراهنة أن تبقى نسبة معينة من التبرع الخاص سارية المفعول إلى أن تبلغ التبرعات العادية درجة تغطي فيها كل هذه النفقات. وهذا يعني أن أفراد الجماعة سيظلون ينفقون أربعين بالمئة من مداخيلهم علاوة على مساهمتهم في صندوق التبرع العام. لا أخاف من إحجام بعض الضعفاء عن حمل هذا العبء، لأنهم ليسوا مصدرَ قوة أبداً بل يتسببون في ضعف الآخرين ويشكلون عقبةً في طريق ازدهارهم،

وانفصالهم خير للآخرين. فلو ارتدَّ بعض الناس جراء هذا الأمر لم يضرنا شيئاً بل على العكس يزول عبئهم عن كواهلنا.

لا بد إذاً لأفراد الجماعة من تقديم أربعين بالمئة من مداخيلهم الشهرية تبرعاً خاصاً ما لم يبلغ التبرع العادي درجة تغطي كل نفقاتنا. لا تأخذكم الريبة إزاء كيفية التمكّن من القيام بهذه الأمور كلها. إني لا أخطب الأقوياء من الأحمديين بل أوجه كلامي إلى الضعفاء الذين يشكلون عبئاً علينا فأقول: إن هذه الجماعة هي جماعة الله تعالى، وقد رأيت هذا المكان حين كان خراباً لا مسكن فيه، وأتذكر ذلك الوقت أيضاً حين كان شخص واحد فحسب يخرج مع المسيح الموعود عليه السلام في نزهته وكان ذلك خادمه. أما الآن فلم يعد المسيح الموعود عليه السلام موجوداً بين ظهرانينا، ولكن جماعته كثرت حتى إن خادمه هذا يفر من زحام الناس لكي لا يغشوه. فمن ذا الذي أحال شخصاً واحداً جمعاً غفيرة من الناس ويرسل عن طريقهم تبرعات بآلاف الروبيات؟ لا شك أنه الله تعالى وهو الذي سينمي هذه الجماعة في المستقبل أيضاً. فلا يسعني أن أتصور للحظة واحدة أن هذه الجماعة لن تزدهر أو أن عقبه من العقبات قد تحول دون رقيها. وأقول لأفراد الجماعة - إلا البعض الذين حُتم على قلوبهم - إن هذه الجماعة ستجتاز مثل هذه الصعوبات بفضل الله

تعالى وسيحقق الله تعالى الفتح والنصر على يد هؤلاء الذين يُعْتَبَرُونَ ضعافا اليوم، بل إنهم ضعفاء حقيقة. اعلموا أن القائد الشجاع هو من يحقق إنجازات عظيمة بواسطة جنود عاديين. أما هذه الجماعة فهي جماعة الله تعالى، ولا أقول شيئا عن نفسي بل كل من تُعهد إليه قيادة هذه الجماعة سيهبه الله تعالى من القوة والتأييد ما يحقق له الفتح والنصر على يد هؤلاء الذين يُستضعفون اليوم. قد يسيئ بعض أفراد الجماعة الظنَّ بأنفسهم إلا أنني أحسن بهم الظن وعسى أن يدنو يومٌ يصدق فيه ظنِّي الحسَن بجلاء تام بإذن الله تعالى.

أقول مرة ثانية: إذا كان بعض أفراد الجماعة يعتبرون التبرعات المالية عبئا عليهم فلماذا لا يكتفون التبليغ؟ متى منعْتهم من أن يزيدوا الجماعة عدداً؟ فلماذا لا يسعون لزيادة عدد أفراد الجماعة حتى يقلَّ هذا العبء؟ فهم المقصرون في هذه الحالة أيضاً، إذ لو تمكنوا من زيادة عدد أفراد الجماعة لقلَّ العبء المالي تلقائياً. والحقيقة أن هذا "العبء" لا يزول عن الإنسان إلا بعد موته، أما في حياته فلا يزول أبداً.

وبعد هذا أريد أن أبشر الإخوة أنه في هذا العام قد توطدت فروع الجماعة في بلدين آخرين أيضاً، أحدهما بلد لم يحرز فيه المسيحيون بعض النجاح إلا بعد تبشير دام مئة سنة تقريبا، ولكن

مبلغنا قد وجد فيه خمس عشرة أو ست عشرة نفساً ذوات طبائع سعيدة نتيجة تبشيره لبضعة أيام فحسب، ألا وهي منطقة جزر "سومطرة" و"جاوه". أما البلد الثاني فمجرد التلفظ باسمه يثِّ حماساً واندفاعاً في عروقي، ألا وهو "إيران". إنه لبلد ينتسب إليه المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام، فالرسول الكريم ﷺ تنبأ أن المسيح الموعود سيكون فارسي الأصل⁹. لقد دخل في الأحمديّة من عاصمة إيران قرابة عشرين شخصاً. ومما يبعث على السرور أكثر أن مبلغنا الموفد إلى هناك لا يتقاضى من الجماعة شيئاً ينفق منه. إنه الشاهزاده عبد المجيد من سكان "لدهيانه" وهو من نسل "شاه شجاع"، وقد نذر حياته لخدمة الدين فأرسلته إلى إيران. وعلمت من رسالته الأخيرة أن بعض كبار الناس وأشرفهم - الذين يتبعهم ألاف من الناس - أيضاً أصبحوا يحققون في أمر الجماعة.

وهناك أمر آخر أريد أن أطلعكم عليه ويتضح منه كيف ينشر الله تعالى دعوة جماعتنا. إن حركة تمرد الأكراد التي حصلت في تركيا العام الماضي قادها شخص يُدعى الشيخ سعيد¹⁰. وكانت

⁹ البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الجمعة باب قوله ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾. (الناشر)

¹⁰ الشيخ سعيد البرزاني. (المترجم)

هذه الحركة واسعة النطاق لدرجة جمع الأتراك ثلاثمئة ألف من الجنود للقضاء عليها، واضطروا إلى تعيين شخص مثل رئيس الوزراء عصمت باشا¹¹ قائداً لهذه الحملة. فلما قبض على الشيخ سعيد قال في بيان له مشيراً إلى حادثة معينة: لولاها لما اشتركت في حركة التمرد هذه، لأنني كنت قد عقدت العزم على السفر إلى الهند وتبليغ الإسلام بعد انضمامي إلى الجماعة الإسلامية الأحمديّة. لقد قُتل هذا الشخص على يد الأتراك دون أن يتمكن من تحقيق رغبته هذه ولكن الذي يظهر من هذا الحدث هو أن بعض كبار زعماء هذا البلد قد قبلوا الأحمديّة. يؤسفني جداً أن هذا الشخص لم يكن على اطلاع واسع على تعليمات الجماعة وإلا ما اشترك في التمرد على الحكومة.

لقد أمرت - نظراً إلى المشاكل المالية - بعدم بدء أي مشروع جديد ما لم تتحسن الأوضاع المادية للجماعة. لقد قللنا من نفقات مركزنا في أمريكا، كما سنركز في العام المقبل على نشر الجماعة في الهند ليزداد عدد أفراد الجماعة هنا فيتحمّلوا أعباء أكثر. ولكن بالإضافة إلى حث الجماعة على التضحيات المالية الكثيرة يجب إيجاد

11 عصمت أونونو، وهو شغل منصب رئيس الوزراء لعدة مرات وكان

الرئيس الثاني لتركيا. (المترجم)

الوسائل الدافعة نحو هذه التضحية وتنميتها أيضا. يقال في اللغة الإنجليزية: يجب عدم قتل الدجاجة للحصول على البيضة الذهبية منها. لذلك لا بد من توجيه الجماعة من أجل ازدهارها في الأمور المالية. فمن الأمور الضرورية في هذا الخصوص أن يتعاون الأحمديون فيما بينهم في الصناعات المختلفة كصناعة الحبر والصناديق والإزارات والقبعات وغيرها. فإذا اشترى التجار الأحمديون البضائع من الصناع الأحمديين في أماكن مختلفة أدى ذلك إلى الزيادة الهائلة في مبيعاتهم وازدهار تجارتهم وبالتالي يمكن أن يعود هذا الازدهار بمنافع كثيرة على الجماعة أيضا. فإذا اشترى التجار الأحمديون بضاعتهم من الصناع الأحمديين، وتوجه الزبائن الأحمديون إلى محلات الأحمديين لشراء حاجياتهم لاستفادت الجماعة كثيرا. ويجب على المبلّغين تقديم المساعدة في هذا الخصوص، فعليهم عند زيارتهم لمنطقة ما جمع المعلومات عن الأحمديين الصناع ثم إخبار الأحمديين في مناطق أخرى عن ذلك وحثهم على أن يشتروا بضائعهم من الأحمديين. وأرى أن إحدى السبل لترويج هذه الفكرة هي إقامة معرض خلال أيام مجلس الشورى يعرض فيه الصناع الأحمديون مصنوعاتهم ليطلع عليها أفراد الجماعة ويعرفوا إمكانية توفيرها في مناطقهم فيقدموا طلباتهم

حسب الحاجة. بالإضافة إلى ذلك يجب على الأحمديين أن يساعدوا في توظيف الأحمديين العاطلين عن العمل. لقد أبدى بعضهم نشاطاً في هذا المجال في حين أن معظمهم مقصرون فيه. كما يجب على أفراد الجماعة زيارة المدن التجارية الكبيرة لتعلم أمور التجارة والصناعة.

هناك أمر ضروري آخر وهو مساعدة أولياء المتوفين. لا بد أن يكون ثمة صندوق خاص لإعانة مثل هؤلاء المحتاجين الذين يلبون مناشدتنا من أجل التضحية المالية فيبدلون كل ما يملكونه ولا يبقى لديهم عند موتهم شيء يتركونه لذويهم، ولا بد أن يكون التبرع فيه اختيارياً لا إلزامياً، ويجب أن توضع قاعدة بهذا الخصوص مفادها أن من التزم بالتبرع فيه بمبلغ معين فسيعطى بعد فترة معينة قدرًا من المال مرة واحدة، أو إذا توفي فسيعطى أهله مبلغًا ما. فإذا استطعنا فتح مثل هذا الصندوق تمكنا من إعالة أهالي المرحومين، ولا أستطيع الإسهاب في هذا الموضوع أكثر، وأريد أن يُطرح في مجلس الشورى ويُعمل به بطريقة لا تتحول ربًا ولا تأمينًا، وفي الوقت نفسه يحقق الغرض المطلوب.

ويجب أن تأخذ الجماعة قراراً بأنها سوف تقدم معاشاً لذوي المرحومين إلى أن يبلغوا سنّاً معيناً، أو أنها تتحمل نفقات أولادهم حتى بلوغهم مستوى دراسياً معيناً.

مثل هذه المشاريع ضرورية أيضاً لتحسين الحالة المالية للجماعة، وسنفر في الاقتراحات الأخرى التي لا غبار عليها من الناحية الشرعية ونتمكن من خلالها تدير أمور ذوي المرحومين بطريقة معقولة، هذا مما سيجعل أفراد الجماعة يعتمدون على الجماعة - وإن كان المؤمن لا يعتمد حقيقةً إلا على الله - ولا يخافوا على أولادهم عيلةً من بعدهم.

والآن أبدأ ذلك الموضوع الذي أشرت إليه في البداية. كنت أجد في قلبي رغبة عارمة لبيان هذا الموضوع منذ مدة طويلة. إنه لموضوع هام جداً تنشأ لدى الجميع تساؤلات حوله، وقد سألتني عنه كثير من الإخوة وطلبوا مني وصفة مجربة بخصوصه، ألا وهو:

وسائل لتجنب الآثام والسيئات والتحلي بالحسنات

والرد الطبيعي على هذا التساؤل هو اعملوا الصالحات واكتسبوا الحسنات واجتنبوا السيئات والموبقات. ولكن يقول كثير من الإخوة بناء على تجاربهم: التزمنا بتلاوة القرآن وقراءة الأحاديث ومطالعة

كتب المسيح الموعود عليه السلام، وسعينا جاهدين لتجنب الذنوب، ولكن لم نتمكن من إحراز أي نجاح، فما هو الحل لوضعنا الحالي؟ هذه هي النقطة التي نجعلها منطلق بحثنا اليوم أي: كيف يتمكن المرء من تدارك هذا النوع من الضعف الذي يسبب إخفاقه في اجتناب الذنوب رغم سعيه لتلافيه ورغبته في الابتعاد عنه.

لما بدأتُ بكتابة ملاحظاتي حول هذا الموضوع فطنت إلى أنه يلتقي في بعض جوانبه بموضوع العرفان الإلهي أيضاً، مما حداني إلى العودة إلى خطابي المعنون: "العرفان الإلهي" وعلمت أنني قد وعدت فيه بتناول هذا الموضوع الذي أنا بصدده الآن، وها أنا وبفضل الله تعالى أفي بوعدي الذي قطعتُه.

عند بداية تفكيرِي في هذا الموضوع تذكرت رؤيا رأيتهَا منذ أمد بعيد جداً لعلها كانت بعد شهر تقريبا من وفاة المسيح الموعود عليه السلام إلا أنه لم يخطر لي عندها أي تفسير لها. وكانت الرؤيا كما يلي:

رأيتني جالسا على المصلّى لأداء الصلاة ويدي كتاب أُخبرت عنه أنه تأليف الشيخ عبد القادر الجيلاني واسمه "منهاج الطالبين" .. أي الطريق الذي يسلكه الواصلون إلى الله. قرأت في الرؤيا هذا الكتاب ووضعتُه في مكان ما، ثم خطر ببالي أن أقدمه للخليفة الأول رضي الله عنه، فبحثت عن الكتاب فلم أجده، بل وجدت مكانه كتابا آخر،

وعندها جرت على لساني الكلمات التالية: "وما يعلم جنود ربك إلا هو."

خطر ببالي بعد هذه الرؤيا البحث فيما إذا كان للشيخ عبد القادر الجيلاني كتاب بهذا الاسم أم لا، فسألت الخليفة الأول رحمته الله عنه فقال: ليس له كتاب بهذا الاسم ولكنه ألف كتاباً آخر باسم "غنية الطالبين"، ثم علمت فيما بعد أنه لا يوجد لأحد كتاب بهذا الاسم. فوقع في نفسي لعل الله يوفقي لتأليف هذا الكتاب، ولعل المراد من مؤلفه "عبد القادر" هو أن هذا العمل لن يكون نتيجة جهدي وثمره فكري وإنما يحتوي على أمور يعلمها الله تعالى. لأجل ذلك عنونتُ الموضوع الذي سأتناوله بـ: "منهاج الطالبين". سأتجاوز لدى سردي لهذا الموضوع بعض جوانبه المتعلقة بالعرفان الإلهي وقضية النجاة، أو سأعرض لبعضها بشكل مختصر إن احتجت إلى ذلك لتسلسل الموضوع. هذه هي الجوانب العلمية لهذا الموضوع وسأتناول اليوم جوانبه العملية أيضاً.

عند التفكير في هذا الموضوع الهام لا بد أن نعلم الغرض الذي خُلق الإنسان لأجله. ولقد بين الله تعالى ذلك بنفسه إذ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٧).. أي خلقنا الإنسان لغرض واحد فحسب، وهو أن يصبح عابداً لنا. والعبادة

في اللغة العربية تعني التذلل، والتذلل يعني قبول نقش الآخر وصبغته. وعليه فالعبد الكامل هو من يقبل على نفسه حكومة معبوده ونقشه. فإذا كانت الغاية من خلق الإنسان هي قبول نقش الله تعالى فلا يسعنا تحقيقها بدون التخلق بأخلاق الله تعالى. ولقد بعث الله تعالى أنبياءه لتحقيق هذه الغاية، فقد ورد في القرآن الكريم دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة ١٣٠). يتضح من هذه الآية أن الهدف من بعثة هذا الرسول هو أن يقوي المؤمنين إيماناً وعلماً، ويعلمهم الشريعة والحكمة.. أي يعلمهم طرق العمل بما جاء به من تعليم، ويزكيهم لدرجة يتأهلون بها للوصول إلى حضرة الله تعالى.

ليست هذه القضية قضية عادية، بل مصيرية بالنسبة إلى جماعتنا، لأن نبياً من الله قد بُعث فينا وتلا علينا آياته فأمنا به. ولكن ما فائدة هذا الإيمان إذا بقينا بعده أيضاً ملوثين بالآثام نفسها؟

لقد ذكر المسيح الموعود عليه السلام ذات مرة في أحد مجالسه الدرجات الروحانية العظيمة التي يجب على المؤمن أن يتحلى بها، وكان الصحابي المخلص المولوي برهان الدين الجهلمي موجوداً فيه، فما أن انتهى عليه السلام من خطابه حتى أجهد المولوي الموصوف

بالبكاء ثم قال للمسيح الموعود ﷺ: لقد كنت وهابياً فيما سبق فتحملت الضربَ مراتٍ عديدةً بجريرة نشر أقوال النبي ﷺ، ثم بُعثتَ فآمنا بك فتعرضنا للضرب مرةً أخرى ورُشقنا بالحجارة وتكبدنا الخسائر المادية على يد المعارضين (كان المولوي المحترم يتكلم باللغة البنجابية وترجمتُ كلامه إلى الأردية، غير أنه لا يمكنني نقل الجملة التالية باللغة الأردية لذلك أقولها بالبنجابية حيث قال ما معناه:) مع كل ذلك أشعر اليوم أنني لا أزال جاهلاً ولا أصلح لشيء.

فلو ظلَّ أحدٌ لا يصلح لشيءٍ حتى بعد الإيمان بنبي من الأنبياء فكأن إيمانه هذا لم يُجده نفعاً. فلا بد إذاً أن نحدث في أنفسنا تغييراً يُشعرنا بأننا وضعنا يدينا في يد رجل رباني بل وضعناها في يد الله تعالى، فلسنا على شيءٍ ما لم نحظْ بهذه الحالة. انظروا ماذا كان المسيح الموعود ﷺ يتوقع منا وكيف يوجه لنا تحذيراً خطيراً ناصحاً إيانا بخصوص تزكية النفس:

"تزكية النفس تعني أن يراعي الإنسان حقوق الجانيين.. حقوق الخالق ومخلوقه.. أما حقوق الخالق، فكما يؤمن بلسانه بأنه واحد لا شريك له كذلك يجب أن يؤمن به بأعماله، فلا يعتبره مشاهماً لمخلوقه؛ أما حقوق المخلوق فينبغي ألا يكن بغضاً ولا حقداً لأحد، ولا يعيثُ فساداً ولا يحيك كيداً. ولكن لا يزال بلوغكم هذه

الدرجة بعيداً لأنه لم تصفُ بعدُ علاقتكم فيما بينكم إذ يشكو بعضهم ويغتاب بعضهم الآخر ويأكل بعضهم حقوق الآخرين. يريد الله تعالى ألا يكتب لكم أي نجاح وفلاح ما لم تصبحوا إخوانا فيما بينكم وكأعضاء الجسد الواحد. إن لم تصفُ علاقة الإنسان مع إخوانه فلا تصفو مع الله أيضا. لا شك أن حق الله أكبر ولكن يستطيع الإنسان أن يدرك ما إذا كان يؤدي حقوق الله تعالى أم لا من خلال أدائه حقوق مخلوق الله أو إحجامة عنه. فمن لا يستطيع تصفية علاقته مع إخوته لا يتمكن من تصفيتها مع الله تعالى أيضا. إنه ليس بأمر سهل بل هو بالغ الصعوبة. ثمّة بون شاسع بين الحب الصادق وبين النفاق. اعلّموا أن للمؤمن على أخيه حقوقاً كثيرة، منها أن يعودّه إذا مرض، ويصلي عليه إذا مات، وألا يتشاجر معه على أتفه الأمور بل يصفح عنه ويغض الطرف عن أخطائه. يريد الله تعالى ألا تبقوا على ما أنتم عليه، وستُدَمِّر الجماعة إن لم تكن فيها الأخوة الصادقة.^{١٢}

أستغفر الله ربي من كل ذنب وأتوب إليه.

12 جريدة "بدر" الصادرة بتاريخ ٩ يناير ١٩٠٨ العدد الأول ص ١٢.

هذه هي نصائح المسيح الموعود عليه السلام بخصوص التقوى. فمن واجبنا السعي للتحلي بها من أجل تحقيق الهدف من خلقنا ومن بعثة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعثة المسيح الموعود عليه السلام.

والآن أقدم تعريفاً وجيزاً للإنسان الكامل.

فكما يجب أن نعرّف في علم الطب من هو الإنسان الصحيح غير المعتل كذلك يجب أن نعرّف أولاً مَنْ هو الإنسان الكامل من الناحية الروحانية.

إن أهم ما يحتاجه الإنسان للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل سلامة علاقته مع الخالق والمخلوق على حد سواء، ولا بد للإنسان الكامل من الالتزام بهذين الأمرين الهامّين اللذين ذكرهما المسيح الموعود عليه السلام.

علاقة الإنسان مع المخلوق تنقسم إلى جزأين:

١. أن تبقى علاقته مع نفسه سليمة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: لنفسك عليك حق. ١٣

13 مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، رقم الحديث ٦٥٨٣. (الناشر)

٢. أن تكون علاقته مع المخلوقات الأخرى سليمة أيضاً.

وينقسم القسم الأول - وهو حق الإنسان على نفسه - إلى جزأين:

أحدهما: أن يجتنب أموراً تُفسد قلبه.

ثانيهما: أن يلتزم بما يؤدي إلى طهارة قلبه.

أما القسم الثاني (وهو علاقته مع غيره من المخلوقات الأخرى) فله فروع ثلاثة وهي:

١. أن تكون علاقة الإنسان طيبة مع بني جنسه على مستوى الأفراد.

٢. أن تكون علاقته طيبة مع بني جنسه على مستوى الجماعة، ويعني ذلك تعاونه مع بني جلدته ضمن حدود قوانين بلاده.

٣. أن تكون علاقته طيبة مع المخلوقات الأخرى أيضاً.

وهناك فرعان آخران يلتحقان بهذه الفروع الثلاثة وهما:

أ. أن يجتنب ما يفسد علاقته مع بني جنسه أو مع المخلوقات الأخرى.

ب. أن يلتزم بما يؤدي إلى بناء علاقته مع بني جنسه والمخلوقات الأخرى على مبدأ الإحسان.

أما علاقة الإنسان مع الله تعالى فلها جانبان اثنان أيضا :

أحدهما: أن يجتنب أفعالا تؤدي إلى قطع علاقته بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وثانيهما: أن يسعى للقيام بأعمال تساعد على تعزيز علاقته بالله

تعالى.

أشرح لكم بعد سرد هذا التقسيم معنى الدين لأنه جوهر هذه

الأمر كلها.

وأذكر بالمناسبة أن الدين شقان: الأخلاق والروحانية. أرى أن

كثيرا من الناس قد أخطأوا في اعتبارهم الأخلاق دينًا، فراحوا

يقولون عمن أخلاقه حسنة بأنه صالح وتقي، والحقيقة أن نصف

كلامهم صحيح إذ لا يمكن وصف شخص خلوق بأنه صالح

ومتدين وتقي.

تعريف الأخلاق

الأخلاق هي ما يتعلق من أعمال الإنسان بيني جنسه، أما ما

يتعلق بالله تعالى من أعماله فيسمى بالروحانية. من يكذب على

العباد فهو سيئ الأخلاق، أما من يكذب على الله تعالى فروحانيته

ميتة. فمن سلم له هذان الجانبان فهو المتدين والتقي. فإن توافقت

الأخلاق مع تعاليم الشريعة والتقاءها بالروحانية يسمى ديناً. أما صدور الأعمال نفسها من شخص متحضر - دون أن يكون فيها نصيب من الروحانية - فيجعله خلوقاً فقط.

أتناول أولاً موضوع الأخلاق ثم أفصل في موضوع الروحانية. يجب أن نتذكروا الفرق بين الأخلاق والروحانية، فإن أعمالنا وتصرفاتنا في تعاملنا مع الناس تسمى أخلاقاً، أما الأعمال والأفعال تجاه الله تعالى فتسمى بالروحانية، وعليه فمع أن موضوع الروحانية سيتضح تلقائياً عند شرحي للأخلاق بيد أني سأحرص على تبيان الفرق بينهما حيثما لزم الأمر.

ما هو الخلق؟

يجب أن نُعرِّف ما هو الخلق قبل التفكير في قضية الأخلاق. لقد أخطأت المذاهب الفكرية والفلسفات - إلا الإسلام - في فهمه إذ عرّفوا الخلق بتعريفات عجيبة غريبة، منها على سبيل المثال:

(١) الخلق هو ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر وروية، أو هي ملكة يمتنع بها الإنسان عن ارتكاب أفعال من غير حاجة إلى فكر وروية.

٢) ويرى البعض أن الخلق مادة صالحة متجذرة في نفس الإنسان لتُعرفه على ذات الله تعالى.

٣) ويرى البعض الآخرون أن الخلق مادة تجذرت في نفس الإنسان بعد ممارسته أموراً معينة لفترات طويلة، ثم توارث الناس هذه المادة جيلاً بعد جيل. هذا ما توصل إليه الفلاسفة الأوروبيون.

أما أنا فأرى أن الخلق اجتماع الغريزة مع قوة الفكر، ويصدر عن شخصية قادرة على التحكم في هاتين القوتين.. أي إذا شاءت استخدمتهما وإذا شاءت تركتهما. فلو صدرت هذه الأفعال مجردة عن قوة الفكر سُميت غريزة، كما هي في الحيوانات. لا شك أن الحيوانات تحب وتتألف إلا أننا لا نستطيع أن نسميها خلوقاً بل هذه غريزة فيها. أما إذا ظهرت مثل هذه الأعمال من ذوات خلقت خصيصاً من أجل إظهار صفات معينة فهي تسمى ظهور القدرة الإلهية كما هو الحال في النباتات والجمادات.

هذا الجزء من الموضوع صعب جداً، فإذا لم يفهمه بعض الإخوة الآن فيمكنهم الاطلاع عليه واستيعابه عندما ينشر كتاباً، ولا بد لي من شرحه هنا على صعوبته لأن الجزء التالي من الموضوع يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ويتأسس عليه لذلك لا يمكن الوصول إليه إلا مروراً

من هذا الجزء الأول والصعب. أما الجزء الثاني فهو يسير وسيستوعبه الإخوة جميعاً.

لقد عرّفت الأخلاق أنها تلك الأفعال التي تصدر عن أناس قادرين على التفكير والتدبر وقادرين على العمل بها أو الامتناع عنها.

والآن أعرف الأخلاق الحسنة:

اختلف الناس في تعريف الأخلاق الحسنة أيضاً.

(١) يرى البعض أن الأخلاق الحسنة هي استخدام القوى الإنسانية تحت رقابة العقل.

(٢) ويرى الآخرون أنها الأفعال التي تسرّ الإنسان سروراً حقيقياً.

(٣) ويرى غيرهم أنها الأفعال التي روعي فيها جانب الإيثار، يعني يوتر فيها صاحبها غيره على نفسه فيفيده ولو كان به خصاصة.

(٤) ويرى البعض الآخر أنها أفعال يتم صدورها تحت رقابة العقل ولكن بهدف الانتفاع الشخصي والإيثار معاً.

(٥) ويقول المسلمون الصوفيون هي الملكة الراسخة في النفس تصدر عنها الأفعال الجميلة والمحمودة عقلاً وشرعاً.

هذا ما عرّف به الإمام الغزالي الأخلاق الحسنة. ولكن أرى أن هذا التعريف يحتاج إلى إصلاح طفيف وهو: بالإضافة إلى كونها جميلة

ومحمودة عقلا وشرعا يجب أن يكون فاعلها قد قام بها بإرادته ورضاه وقدرته عليها. فلا تُعتبر الأخلاقُ حسنةً إذا خلت من هذا الشرط، مثلا لو أعطى أحد غيره روية في حالة شبيهة بالنوم في حين أنه يتهرب في اليقظة من كسب الخير والتصدق على الآخرين فلا يمكننا اعتبار صدقته في حالة النوم خُلُقًا حسنًا لأنه لم يقم بها عن إرادته.

فالأخلاق الحسنة هي تلك الأفعال المحمودة عقلا وشرعا والتي تصدر عن قصد وإرادة وقدرة. وهناك شرط آخر وهو أن تتفق هذه الأفعال مع صفات الله تعالى ولا تخالفها. هذا هو التعريف الصحيح، لأن الحسنة لا تُعتبر حسنة إلا إذا كانت منزهة عن النقص والخطأ والعيب. لا يمكننا اعتبار أي شيء طاهرًا بفتوى عقولنا بل الشيء الطاهر حقيقةً هو ما تشهد له الصفات الإلهية وهو ما يستحق أن يسمى بالحسنة الحقيقية لأن ذات الله تعالى وحدها كاملةٌ ومنزهة عن كل عيب.

والآن أتناول ذكر المصدر الذي تنبع منه الأخلاق كلها.

لقد اختلف الناس في تحديد منبع الأخلاق، فيرى البعض أن مصدرها القوة الفكرية.. أي العقل والغضب والشهوة؛ أما العقل فهو العامل الرئيس الذي يقوم بدور الفارس، وأما الغضب والشهوة

فهما بمنزلة الفرسين، فإذا قاد فارسُ العقل فرسَي الغضبِ والشهوةِ بصورة صحيحة أنتجَ خُلُقًا حسنًا، أما إذا أخطأ فلا يُنتجُ إلا خُلُقًا سيئًا. وقد سُمي محي الدين بن عربي هذه القوة - أي قوة الفكر والعقل - بالـنفس الناطقة، وهو يدعي بأن جميع الأخلاق تنشق من اجتماع هذه القوى الثلاثة، أي إما عن اجتماع العقل والشهوة، أو عن اجتماع العقل والغضب، أو عن اجتماع الثلاثة معًا؛ فيعتبر العقلُ بعلاً والشهوة والغضبَ زوجيه، فكما أن المولود نتاج اجتماع الرجل مع المرأة، كذلك الأخلاق عنده نتيجة لاجتماع العقل مع قوة الغضب أو الشهوة.

يرى البعض أن الإنسان مفطور على رغبة شديدة في نيل الفرحة والسرور، وعليه فإن الأخلاق تتولد - وفق هذا الرأي - عند اجتماع هذه الرغبة مع العقل.

وأرى أن المسلمين القدامى لم يفهموا جيدًا منبع الأخلاق في ضوء القرآن الكريم. لقد توصلت من خلال التدبر في القرآن الكريم إلى أن منبع الأخلاق عميق الغور. يمكن أن يصح تعريف الأوائِل إذا كان الإنسان وحده يتحلى بتلك الأفعال التي تسمى أخلاقًا، ولكن نرى أن بعض هذه الأفعال نفسها تصدر عن مخلوقات أدنى درجة من الإنسان؛ مثلاً، يقولون إن الأخلاق نتيجة اجتماع العقل

والشهوة والغضب؛ والمحبة أيضا خُلِقَ من هذه الأخلاق، ولكنه موجود في الحيوانات أيضا، فإذا كانت الأخلاق تتولد عند اجتماع العقل مع الشهوة أو مع الغضب - على حد قولهم - فكيف تتحلى الحيوانات بالمحبة التي تُعتبر خُلُقًا من الأخلاق مع أنها لا تتمتع بقوة العقل؟ يدلُّ ذلك على أن العقل والشهوة والغضب ليست منبعا للأخلاق وإلا لزم عدم وجود خُلُق من هذه الأخلاق في الحيوانات. لقد تدبرتُ في هذا الموضوع، وأفهمني الله تعالى بفضله موضوعا جديداً قلب قضية الأخلاق رأسا على عقب. الحقيقة أن جذور الأخلاق عبارة عن قوى يتمتع بها الناس والحيوانات بل النباتات والجمادات أيضا، بل هي موجودة أيضا في تلك الذرات التي تتكون منها هذه الجمادات. فانظروا إلى الحيوان، فهو أيضا يتمتع ببعض الصفات الموجودة في الإنسان، فالإنسان يغضب والحيوان أيضا، والإنسان يحب والحيوان كذلك.

نزل الآن إلى درجة أدنى منها فنأخذ النباتات مثلاً فهي الأخرى تتمتع ببعض الصفات الموجودة في الناس والحيوانات مع الفرق أن هذه الأفعال أو الصفات في النباتات تكون أدنى درجة مما هي لدى الناس والحيوانات؛ مثلا يرغب الإنسان في الأخذ والعطاء وتتمتع النباتات أيضا بهذه الرغبة. وقد ثبت من خلال البحوث

المعاصرة أن خصائص الذكر والأنثى أيضا موجودة في جميع النباتات (وإن كان القرآن الكريم قد سبق في ذكر هذا الموضوع قبل قرون)، ولا ينتج الثمر إلا عند اجتماع الذكر بالأنثى، وهذا الأمر معروف عن شجرة النخيل منذ آلاف السنين مما يدل على أن النباتات أيضا تتمتع بقوة الشهوة. علاوة على ذلك توجد فيها قوة الغضب أيضا وقد أثبت ذلك الدكتور "بوس" في بعض تجاربه، ولا أدل على ذلك من نبتة تدعى بالعربية "المجزاعة"، التي تنكمش فوراً إذا ما لمست، وإذا لمست ثمرها رمى بنواته خارجاً وانكمش فوراً. وهناك شجرة في أمريكا إذا اقتربت منها ذوات اللحم والدم انبسطت وسُرت، وإذا لامستها أطبقت عليها وامتصت دمائها ثم تركتها. يثبت من هذه الأمثلة أن النباتات أيضا تتمتع بهذا الإحساس.

ننزل الآن إلى درجة أدنى منها لنبحث في الجمادات. يقال إن الحب خلق عظيم. ولكن ما هو الحب؟ إنما هو جذب أحد غيره نحوه. أفليس المغناطيس يجذب الحديد نحوه؟ فلا شك أن هذا النوع من الجذب موجود في المغناطيس أيضا إلا أنه بدائي وبسيط جداً. ومن ناحية أخرى إذا شُحن جسمان بنفس النوع من الشحنات الكهربائية فإنهما يتنافران ويتدافعان، وكأن كل واحد منهما يُظهر

نفوراً من الآخر. فثبت أن مادة الحب أو التجاذب والنفور أو الكراهية والغضب موجودة في الجمادات أيضا.

ولقد قلت إن هذه القوى موجودة في الذرات الدقيقة أيضا، لأنه لولاها لما تكوّن هذا العالم. لو لم تجتمع الذرات وتتماسك فيما بينها بقوة الجذب لما تكوّن شيء من أشياء هذا العالم. إنها قوة الجذب التي تعمل على لحمة الذرات وتماسكها. يثبت إذاً أن مادة الأخلاق عميقة الجذور، إلا أننا كلما نزلنا إلى درجة أدنى من المخلوقات عثرنا فيها على بعض الأخلاق دون غيرها، ولكن مما لا شك فيه أن جذور الأخلاق موجودة على كل مستويات المخلوقات ودرجاتها. وبعد أن أثبتُّ من خلال الأمثلة أن ذرات العالم أيضا تتحلى بالقوى والخصائص التي تنبثق منها الأخلاق، أبين لكم الآن نوعية الخصائص التي تُعتبر مادة الأخلاق.

إذا فكرنا في الحالة البدائية للمادة علمنا أنه إضافة إلى جهاتها الست في الظاهر - وهي فوق وتحت، يمين وشمال، أمام وخلف - ثمة جهات ست باطنية لها أيضا، وإنما أيضا أزواج على شاكلة الجهات الظاهرة، أي كما تكون في الجهات الظاهرة جهة اليمين من ناحية معينة وجهة اليسار من ناحية أخرى، وتكون جهة الأمام من ناحية وجهة الخلف من أخرى، وجهة فوق من ناحية وجهة تحت

من أخرى، كذلك في الباطن أيضا هناك زوج مقابل كل زوج من الجهات الست وفق اعتبارات مختلفة، إحداهما ذكورية والأخرى أنثوية، أو إحداهما مؤثرة والأخرى متأثرة. والظاهر أن ما لا يتأثر فلا يمكن أن يؤثر فيه شيء. مثلا: يتميز العجين بالليونة لدرجة تغوص فيه قبضة اليد، ولكن الطاولة لا تدخل فيها قبضة اليد فهي لا تتأثر. ومن هنا يظهر أن إتمام أي عمل يستلزم قوة فاعلة أي مؤثرة من جهة، وقوة قابلة للتأثر من جهة أخرى؛ وعليه فإن كل ذرة من هذا الكون تتمتع بقوة الجذب أو الانجذاب.

الجهة الباطنة الأولى هي الجذب وزوجها الميل أو الانجذاب. كل ذرة من ذرات هذا الكون إما أنها تجذب الأخرى في الظروف الموازية أو تنجذب وتميل إليها.

والجهة الباطنة الثانية هي القوة الدافعة وزوجها قوة الإعراض أي النأي أو الابتعاد.

والجهة الثالثة أو الميزة الثالثة في كل ذرة هي الإفناء. يقتضي ظهور كل شيء في شكل جديد القضاء على شكله القديم. مثلا أحرك يدي من هنا وأضعها هناك فلا يظهر الشكل الثاني إلا بعد زوال شكل اليد من المكان الأول. كذلك عندما تتأثر الذرات وتتشكل في صورة جديدة فلا بد أن يرد الفناء على شكلها الأول.

وزوج الإفناء هو ميزة الفناء، ويعني ذلك أن كل ذرة تتمتع بقوة الإفناء والفناء معاً.

الميزة الرابعة هي الإبقاء، وهي أنك إذا ألقيت شيئاً باتجاه الجدار فلا بد أن يوقفه الجدار ويصده، والميزة المقابلة لها هي البقاء.

الميزة الخامسة هي الإظهار، وهي إبراز بعض الأشياء وإراءتها. كل ذرة تُبرز الذرات المماثلة لها مما يؤدي إلى إراءة الأشياء سميكة وبارزة. والميزة المقابلة لها هي الظهور، أي أن كل ذرة تتميز بصفة البروز والظهور بنفسها أيضاً.

الميزة السادسة هي الإخفاء وهي الستر أو حجب الشيء، مثلاً إذا كان هناك شيء وراء يدي هذه فإن اليد تستره وتحجبه. والقوة المقابلة لها هي الاختفاء أي الاحتجاب واللجوء إلى ستر الآخر وظله. هذه الأزواج من القوى المذكورة موجودة في أدق ذرات المادة وهي تعتبر الأساس النظري النهائي للأخلاق البشرية، وبعبارة أخرى هي ما تعتمد عليه الأخلاق كلها، وهي ما يظهر في الإنسان عند اطرادها وتطورها في صورة مذهلة ومحيّرة جداً لأنه كلما تكتلت المادة وتماسكت أجزاءها أكثر تنوعَ السلوك الناتج عنها وصار أكثر دقة ووضوحاً. وكلما تطورت المادة تنوعتْ خواصها وميزاتها المذكورة وظهرت في صورة أسمى وأرقى وألطف؛ وكلما تدنّى

مستوى المادة أدى ذلك إلى تحديد وتضييق نطاق ظهور هذه الميزات والخصائص. وبما أن هذه الخصائص تعمل وفق قوانين الطبيعة لذلك يمكننا أن نصف ظهورها بالحسن أو السيئ، إلا أنه لا يسعنا وصفها بصفات أخلاقية حسنة أو سيئة. وعليه فعندما نصف شيئاً معطوباً غير مفيدٍ بالسيئ وكل ما يفيدنا بالحسن فإنما نريد التعبير عن ظهور الخصائص الست المذكورة فيه بشكل كامل أو ناقص بحسب قانون القدرة الإلهية. مثلاً لو سقطت هذه العصا على أحد لاستاء وتألم، ولكنه لا يقول: نجم هذا الألم عن سوء خلق العصا، كذلك إذا وجد أحد قطعة نقود ملقاة في الطريق فقد يستحسن ذلك في نفسه إلا أنه لا يقول: أحسنتُ إليّ قطعة النقود. وعليه فيمكننا تسمية الأفعال الصادرة وفق قانون الطبيعة بأنها جيدة أو سيئة إلا أنها لا تُعتبر أخلاقاً. وليس الجيد أو السيئ سوى التعبير عن أنها تعمل بحسب رغبتنا أو خلافها لأن كون الشيء جيداً أو سيئاً أمر نسبي أحياناً، مثلاً إذا أصيب أحد برصاصة فلا بد أن يصف أصدقائه وأحباؤه عمل الرصاصة بالسيئ والمؤسف جداً، أما معارضوه فيستحسنونه، فإن هذا النوع من كون الشيء جيداً أو سيئاً أمر نسبي ولا يسمى خلقاً لأنه عملية طبيعية ومظهر من مظاهر القوانين الطبيعية، ومع أن البعض يستحسنون فعل الرصاصة ويستقبحه

آخرون إلا أنه لا يسمى خلقاً لخلوّه من الإرادة. أما إذا ظهرت المادة - من خلال تطورها وتغيرها التدريجي - في شكل إنسان فإن الخصائص الست تبدأ بالظهور فيه في مئات الصور والأنواع. وبما أن الإنسان مخلوق من عدد لا حصر له من مركّبات المادة وتغيّراتها الدقيقة جدّاً، لذلك أضفّت هذه التغيرات والتركيبات الدقيقة على الميزات والخصائص الست حُللاً وألواناً كثيرة. ولتوضيح ذلك أكثر نأخذ الألوان مثلاً، فهي في أصلها ستة أو سبعة ألوان أساسية، إلا أنّ امتزاجها في تراكيب معينة وانسجامها يمكن أن يُسفر عن مئات الألوان. وبما أن هذه الخصائص الست تظهر في الإنسان بصورة جديدة وبصبغة مختلفة عن ظهورها في المادة لذلك سُمي ظهورها خُلُقاً، وكأنه خُلُقٌ جديد إلا أنه سُمّي بالخلُق للتمييز عن خُلُق الإنسان، وإلا فإن الخصائص الست التي تعمل في المادة في صورتها البسيطة والبدائية هي العامل الأساس فيها أيضاً. فعندما نرى هذه الخصائص تعمل في الجمادات نسميها القوى، وإذا ظهرت في النبات بشكل أفضل نسبياً سُمّيت بالحواس، وإذا ظهرت في الحيوانات بصورة أكثر دقّة سُمّيت بالشهوات أو الغرائز، ثم إذا ظهرت في الإنسان بشكل أكمل سُمّيت بالغريزة أو التصرفات الفطرية إذا كانت مجردة عن الفكر والإرادة، وسُمّيت خُلُقاً إذا كان صدورها

مصحوبا بالإرادة والتفكير، وتكون الخصائص المذكورة قد بلغت أوجها لدى وصولها إلى هذه الدرجة لقوله تعالى في القرآن الكريم عن خَلْقِ الْإِنْسَانِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ١٣-١٥) أي أن الله تعالى قد جعل الإنسان خلقاً أعلى وأشرف من جميع مخلوقاته، وجميع المخلوقات الأخرى دونه مستوى ودرجةً.

إذا تعمقنا في الأخلاق الإنسانية، بعد استيعابنا لهذا الأصل وجدنا أن الخصائص البسيطة الموجودة في المادة هي في الحقيقة تشكل نواة الأخلاق التي بلغت هذه الدرجة السامية بعد مرورها بمراحل التطور والارتقاء، لذلك لا يسعنا أن نعتبر هذه الخصائص سيئةً في حد ذاتها، لأنها الغرائز الطبيعية، فهي تصبح سيئة إذا استخدمت في غير محلها. مثلاً يستقبح الجميع الجبن، ولكن أليس الجبن هو انسحاب الإنسان من موقف معين؟ ولكن الانسحاب في حد ذاته لا يعتبر سيئاً، بل هو تصرف طبيعي لإظهار خاصية الإعراض (المذكورة سابقاً)، إنما نستقبحه إذا كان مخالفاً للعقل ومنافياً لمقتضى الحال؛ فالزهد أيضاً تراجع، إلا أن الجميع يستحسنونه، في حين أن الفعلين

المذكورين لا يختلفان شكلاً. فالحق أن هذا الفعل أيضاً ليس سيئاً ولا حسناً في حدّ ذاته بل إذا صدر مرتكزاً إلى العقل وبحسب الموقف فهو حسن وإلا فهو سيئ، سواء سُمّي زُهداً أو غيره. كذلك الصبر أيضاً فهو إظهار خاصية الإعراض، ولا نستحسنه إلا إذا كان يتفق مع العقل ومقتضى الحال وإلا فلا.

والآن أضرب مثلاً لخاصية الميل، وهو الحب العميق أو العشق، ومثال ذلك هو الحُبّ الذي يَكُنُه حُبُّ الحبيبه، ومريدٌ لمرشده أو تلميذ لأستاذه، فإنه نظراً إلى حسن مرشده أو أستاذه يميل نحوه مدفوعاً من داخله بقوة الجذب. ويسمى هذا الحب خلقاً حسناً ما دام تابعا للعقل ومناسباً للظرف، وإذا لم يكن كذلك فإنه جنون وسخافة. ولكن العامل الأوحد في كلتا الحالتين المذكورتين هو خاصية الانجذاب نحو الآخر، وهي موجودة أساساً في المادة ثم ظهرت ههنا بمظهر آخر.

يمكن أن نضرب الشجاعة مثلاً للأخلاق الناجمة عن القوة الدافعة. ما هي الشجاعة؟ إنها أحد أشكال ظهور خاصية الدفع الموجودة في المادة. وإذا استخدمت في محل مناسب اعتُبرت خلقاً حسناً وإلا فتعتبر خلقاً سيئاً، وعادة السب والشتم فرع لهذه الخاصية؛ إذ إن الغرض منها أيضاً ردّ تهمّة الآخر أو هجمته أو ظلمه.

أما قوة الجذب فهي تجذب الأشياء نحوها، ومظهرها في الإنسان حصلة الحرص التي إذا ظهرت في أفعال الإنسان أخذت تجذب الأموال والمناصب. فإذا ظهرت بصورة غير مشروعة فهي سيئة وإلا فهي حسنة. ولقاء الآخرين بوجه بشوش وطلق فرع لهذه الخاصية، كما تدرج تحتها صفات المدح والمحبة والورع والحوار لنشر الحق. ومثال الأخلاق الناجمة عن خاصية الفناء هو التهور، وهو إلقاء الإنسان نفسه في المهالك دون مبالاة. إذا كان هذا الدافع خاضعاً للعقل عدّ من أسمى الدوافع كما فعل السيد نعمة الله خان حين أزمع على التضحية بحياته حفاظاً على إيمانه¹⁴. فإذا استُخدم هذا الدافع محتكماً إلى العقل سُمي تضحية، أما بدونه فهو تهور، فلو ألقى أحد نفسه في النار المشتعلة واحترق لعدّ تصرفه سيئاً لأنه ليس تابعا للعقل. والمثال الثاني لهذا الدافع هو الإحسان، وهو أن يعطي أحدٌ حقه للآخر ويعرض نفسه لنوع من الفناء، إذ أنه يقدم للآخرين أشياءً كانت كفيلة بإبقائه على قيد الحياة.

¹⁴ السيد "نعمة الله خان" هو أحد الشهداء الأحمديين في أفغانستان الذي فضّل الموت على تراجعته عن الإيمان بالمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام.
(المترجم)

أما الأخلاق الناجمة عن ميزة الإفناء فهي على سبيل المثال القتل والتدمير والحقد والتباغض وغيرها، لأنه لوحظَ في هذه الأخلاق رغبة عارمة ودافع قويٌّ للإفناء.

أما مثال الأخلاق الناجمة عن ميزة الإبقاء فهو الجود والأمل والإحسان وغيرها. ذكرت صفة الإحسان كمثال للفناء أيضا والسبب في ذلك أن بعض الأخلاق تكون مركبة وتتولد باجتماع ميزتين أو تظهر بمظاهر مختلفة في أوقات مختلفة.

أما الكبر والتسابق والشجاعة والعُجب فهي أنواع الأخلاق التي تندرج تحت ميزة الظهور، لأن في أعماق تلك الأخلاق تكمن رغبة في الظهور والبروز.

وإفشاء السر، والرياء، والخلاعة، والصدق أخلاقٌ تُعدّ من المظاهر غير المادية لصفة الإظهار.

وخلق التوكل والغفلة والحياء تتولد من تطور قوة الخفاء. والاستهزاء والمزاح وشهادة الزور والإسرار والكذب أخلاقٌ تُعدّ من المظاهر غير المادية لصفة الإخفاء.

إن بعض الأخلاق مركبة، مثل الحسد، فإنه مركب من الجذب والإفناء؛ والحقد مركب من ميزة الإعراض والإفناء.

تتولد بعض الأخلاق في ظروف مختلفة وتحت تأثير خصائص مختلفة، مثلا المرء أو الجدال ينشأ مرة من خاصية الإعراض ويكون الغرض منه إبطال ادعاء الآخر؛ ومرة أخرى ينشأ من خاصية الجذب وعندها يكون مقصوراً على أخذ الحق.

باختصار، يظهر من مطالعة الأخلاق الإنسانية أنها في الحقيقة صورة متطورة لخصائص المادة، وتحولت بسبب ارتقائها إلى صورة غير مادية أو تركبت في صور أخرى. فاستناداً إلى هذا الأصل الذي ذكرته فيما سبق أدركنا بوضوح حقيقة الأخلاق وجذورها، بل استفدنا أكثر إذ علمنا أن حسن الأخلاق أو قبحها ليس أمراً ذاتياً، بل يتوقف على طريقة ومحل استخدامها لأن هذه الخصائص ليست حسنة ولا سيئة في حد ذاتها؛ بل وهذا التحليل يثبت وجود خالق لهذا الكون أيضاً، لأن هذه الجذور العميقة للأخلاق لا يمكن أن تتولد تلقائياً، ولا يمكن مراعاة هذا الأمر بدون فعل القادر والمدبر والمتسم بالإرادة منذ البدء من أجل أن يترسخ جذر الأخلاق العميق في قلب الإنسان رسوخاً لا يسعه التخلي عنه. فالذات الإلهية هي التي قد مزجت الأخلاق في فطرة الإنسان ليقبل تأثيرها في جميع مراحل عمره وظروف حياته، وليميل فطرياً نحو الأخلاق.

لماذا يجب علينا التحلي بالأخلاق الفاضلة؟

بعد ذكر حقيقة الأخلاق أريد أن أجب على هذا التساؤل: لماذا يجب التحلي بالأخلاق الفاضلة؟ ولماذا يجب التحلي عن الأخلاق السيئة؟

لما كان أهل أوروبا يركزون كثيرا على فلسفة الأشياء فقد أولوا هذا السؤال أهمية كبيرة، وبعد تفكير عميق أجاب بعض المحققين منهم قائلين: بما أن الأخلاق الفاضلة جيدة في جوهرها لذلك يجب قبولها لمجرد أنها أخلاق حسنة وليس لأي غرض سواه.

أما علماء الأخلاق المسلمون فقد أجابوا عن هذا السؤال أنه يجب على الإنسان أن يلتزم بالأخلاق بنية الثواب، حتى قال الإمام الغزالي: ليس بتقي من يجتنب الزنا لأنه يؤدي إلى إفساد صحته. ويشير عشاق الفكر الغربي حوله اعتراضين اثنين:

(١) أوليس بتاجرٍ من يعالج المريض بنية الثواب وليس بهدف مساعدته ليستعيد صحته؟ ثم لماذا يُعتبر طيبًا ومحترمًا من يمارس هذه الأعمال كمهنة تجارية؟

(٢) لو تجنب أحد الزنا حرصًا على منصبه وصحته فلماذا لا يُعتبر عفيفًا؟ وإذا كان تجنبه بهذا الشكل لا يكسبه العفة فلماذا منعه

الشريعة من الزُّنا؟ تقولون: إن تجنب الزُّنا بهذا الشكل ليس يُضمرُ نية الثواب فلا يُعتبر حُلُقًا. ولكننا نتساءل: لماذا يثيب الله تعالى على عمل ما إذا؟ ألا يثيب الإنسان إذا انتهى عمّا نهى عنه وقام بما أمره به؟ والسؤال المطروح الآن: لماذا يأمر الله تعالى بشيء ولماذا ينهى عن شيء آخر؟ إذا فعل ذلك بدون أية حكمة فلا معنى لشريعته ولا طائل منها، ولكن إذا كان لذلك سبب معين وحكمة فلماذا لا تُعدّ من الأخلاق الفاضلة مراعاة هذه الحكمة عند العمل بتلك الأوامر والنواهي؟ ولماذا يُنظر إلى عمل أحد باستخفاف إذا كان عند قيامه به يراعي الحكمة نفسها التي أمر الله تعالى بالقيام بهذا العمل لأجلها؟ أي إذا كان الله تعالى قد منعنا من الزُّنا من أجل الحفاظ على الصحة وأمن المجتمع وتجنبنا لهذا الغرض نفسه فلماذا لا نُثاب عليه ولماذا لا يُعتبر هذا الخلق حسنًا؟ وإن لم تكن ثمة فائدة من تجنب الزُّنا فهذا يعني أن الله تعالى قد منعنا من ارتكابه بلا حكمة ودون أي سبب!

أما الرد على الاعتراض الأول المتعلق بالتجارة فلا وجه للمقارنة بين هذا الفعل والتجارة، لأن الله تعالى بنفسه قرر جزاء الأخلاق الحسنة بحيث صرح أن مَنْ عمل أعمالاً معينة فجزاؤه كذا ومَنْ تجنب أفعالاً معينة فجزاؤه كذا. فهو ليس بالتجارة بل هو إنعام من الله تعالى؛ لأن الإنسان في التجارة يحدد بنفسه قيمة عمله، أما في

الأخلاق فقد حُدِّدَ الجزاء حتى قبل ولادته، وهو جزاء طبيعي نتلقاه سواء أكانت هناك نية لإرضاء الله تعالى أم لا، على أية حال إنه ليس بتجارة. أما التجارة فهي كأن يكون لدى أحدٍ سمنٌ ولدى الآخر نقود، فيشتري الآخر السمنَ لقاءَ النقود، ولكن البائع حرٌّ في بيع أغراضه أو عدمه. أما هنا فالأمر مختلف تمامًا؛ إذ أن صاحب العمل قد وعد بالإنعام مسبقًا دون أن يطلبه العامل. وهناك فرق آخر وهو أننا محتاجون لمن يعدُّ بهذا الإنعام في جميع الأحوال، ولا نحظى بهذا العيش إلا منةً منه، سواء قُمنَّا بهذه الأعمال بنية الثواب أم لم نقم بها. فلا يجوز بحال من الأحوال أن تطلق كلمة التجارة على إنعام الذات الإلهية التي لا نستطيع أن نحظى بالحياة دون مننتها. أما التجارة فقد تكون مع من لا نحتاجه سواء أبقينا على علاقة معه أم لا.

أما ما ورد في الاعتراض الثاني فهو صحيح بشرط الإضافة التالية:
العملُ المجرَّد من نية الثواب لا يُعتبر أخلاقًا.

والرد الأساسي على هذه الاعتراضات هو أنكم لا تفهمون حقيقة الثواب. يمكن أن يكون اعتراضكم في محله إذا كان الثواب نقودًا ومالاً. ولكنه ليس كذلك بل يتمثل في تحقق ذلك الهدف السامي الذي خُلِقنا لأجله أي أن نتحلى بالصفات الكاملة، وأن

تتولد فينا تلك القوة التي تجعل الطهارة جوهر ذاتنا حتى نصبح منبعاً للطهارة. أما ما يذكر من الإنعامات المادية فإنها إما استعارات أو مستلزمات للهدف الحقيقي وليست الهدف الحقيقي نفسه. على سبيل المثال، إذا خدم أحد صديقه فليست الخدمة الهدف الحقيقي، بل هي من مستلزماته، والهدف الحقيقي هو الميل القلبي نحوه والعلاقة الحميمة معه. كذلك ليس المراد من الثواب الأكل والشرب، بل هو الحصول على الكمال الذاتي، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٧).. أي أن الغرض من خلق الإنسان أن يصبح عبداً لله تعالى. فمعنى الثواب أن يوفق الإنسان ليكون عبداً له وَعَلَىٰ وينال كمالاً روحانياً. فإن التحلي بالأخلاق بهدف تحقيق هذا الغرض يجعلها أخلاقاً في الحقيقة أما بدونه فهي تمارين ظاهرية ليست إلا. لا شك أن من يتحلَّى بالأخلاق دون توحي الغرض المذكور أيضاً يستفيد بها إلى حد ما في هذه الدنيا، ولكن لا يسعه إحراز أي نوع من الكمال الروحاني ما لم يهدف بها إلى نيل رضا الله تعالى. تنبني الأفعال الباطنية والذهنية على النية، بل نرى أن الأفعال الظاهرية الحسية أيضاً ترتبط بالنيات، وعليه فلو أخذنا قوة الجسم الأساسية بعين الاعتبار عند ممارسة

الرياضة لأدى ذلك إلى نتائج مُرضية عظيمة، أما بدونه فلا تعود إلا بنتائج متدنية جداً.

والردّ الثاني هو: هدفنا من الالتزام بالأخلاق هو الفوز برضا الله تعالى وهو لا يعني أن يهبنا الله تعالى شيئاً في المستقبل، بل هو تعبير عن شكرنا له على ما أعطانا وأداء واجبنا من الناحية الأخلاقية. بالإضافة إلى ذلك أقول: لم يدرك المعترض حقيقة نفسه أيضاً. إذا كان السعي لنيل الجوائز يعدّ أنانية فإنها موجودة لديه أيضاً؛ نسأله لماذا يعالج أحدُ المريض؟ لو قال: بسبب رحمته القلبية لما كانت له ميزة شخصية تذكر لأنه بهذه الحالة يعالجه مدفوعاً من قلبه أي هو مضطر لمعالجته ولا يعتبر ذلك ميزة له. أما لو كان يفكر أنه لو قام اليوم بعلاجه فلعله يجد غداً من يقدم له خدمة المعالجة فهذا أيضاً ينطوي على الرغبة في الجزاء. أما نحن فلا نتطلع إلى الجزاء على أعمالنا في المستقبل بصورة مال أو نقود بل ننوي أن نشكر الله تعالى على جزائه السابق الذي أنعم به علينا إلى الآن.

من هو الإنسان الخلق؟

والآن آيين لكم من هو الإنسان الخلق. من يتحلّى بجميع الميزات ويتنزّه عن جميع العيوب فهو الخلق عند المسيحيين، وإلى

نفس هذا المذهب تقريبا ذهبت الأديان الأخرى أيضا، ولكن الإسلام يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (القارعة ٧-١٠) أي من كثرت حسناته فهو حَسَنَ الخُلُقِ ومن كثرت سيئاته فهو سيئ الخلق. تقول الديانات الأخرى: لو عمل أحد بالحسنات طوال عمره ثم حدث أن ارتكب سيئة صار سيئ الخلق. ولكن الإسلام يقول من يسعى للتحلي بالحسنات ثم لو بقيت فيه بعض السيئات فإن حسناته ستغطيها وتسترها ويُعدُّ صاحبها حَسَنَ الخلق.

والحقيقة أن الديانات الأخرى ترى أن أحكام الشريعة اعتبارية لا حكمة فيها لذلك فمن نكث حكماً من أحكامها فلا بد أن يتعرض للعقوبة، وكان أحكام الشريعة قوانين عقوبات فحسب. ولكن الإسلام يقول إن الأخلاق وأحكام الشريعة ليست مقصودة لذاتها بل هي ممارسات تدريبية هادفة إلى خلق الطهارة القلبية والتزكية في الإنسان؛ لذلك لو أخطأ أحد في ممارسة أحد هذه التمرينات فلا ينال عقوبة ما دام خطؤه لا يؤدي إلى الإضرار البالغ بالهدف الأساسي من ذلك التمرين أو يقضي عليه. مثلاً: إذا أجاب الطالب عن تسعة أسئلة إجابة صحيحة وأخطأ في واحد فلا يتلقى عقوبة. تصدر الأخطاء عن الأطباء أيضا ولكنهم مع ذلك يُعتبرون أطباء

بشرط أن يظل معظم المرضى يستعيدون صحتهم بمعالجتهم. فمن كان حسن الخلق لا بد أن يُعدَّ خلوقاً ولو بقيت فيه بعض العيوب. ولكن لا يسوِّغ لأحد القول: أتجنب جميع السيئات إلا السرقة إذ لن يؤثر هذا العيب الوحيد فيَّ شيئاً، لأن ذلك عصيان، والعصيان جريمة لا تُغتفر، ولكن الخطأ هو ما يُغتفر. فلو قال أحد الطلبة إنه لن يجيب عن سؤال واحد فلعله يُفصل من المدرسة لأنه أساء إلى الممتحن، أما إذا لم يستطع الإجابة فلن يُعاقب عليه.

هل يمكن إصلاح الأخلاق؟

والسؤال المطروح الآن: هل يمكن إصلاح الأخلاق؟ يقول بعض الناس نعم يمكن ذلك، أما إذا كان الأمر يتعلق بإصلاح أخلاقهم هم فيقولون: ليس إلى ذلك من سبيل. حتى إذا طرحتم السؤال نفسه على الناس الموجودين في هذا الاجتماع فسيقول الجميع: نعم، لم لا؟ وإذا قلت لأحدهم: هل أصلحت أخلاقك؟ فسيقول: بذلت قصارى جهدي ولكن دون جدوى. يبدي الناس عموماً آراءً دأمةً تجاه الآخرين ومادحةً عن أنفسهم أما في هذا الخصوص فالأمر معاكس إذ يبديون رأياً جميلاً عن الآخرين وسيئاً عن أنفسهم. ولكن القرآن الكريم يقول: نعم يمكن إصلاح الأخلاق لقوله تعالى:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى ١٠).. "إِنْ" هنا بمعنى "قد" أي يا محمد ﷺ، وجّه النصيحة إلى هؤلاء الناس لأن النصيحة والتذكير يفيدان دوماً. تدل هذه الآية القرآنية على إمكانية إصلاح الأخلاق في جميع الأحوال.

ونصيحة المسيح الموعود عليه السلام للجماعة بهذا الخصوص معجزة بحد ذاتها، بل هي معجزة كبيرة تكفي وحدها أن تكون آية عظيمة على صدقه. ولم يذكر أحد هذه الحقيقة إلا القرآن الكريم وهو منبع علم المسيح الموعود عليه السلام، ولقد ذكرها بكلمات تملأ قلب الإنسان بالأمل، يقول المسيح الموعود عليه السلام مخاطباً جماعته:

"لا تظنوا لأنكم مذنبون فلن يستجاب دعائكم. اعلموا أن الإنسان يخطئ ثم بالدعاء يتغلب على نفسه ويخضعها، لأن الله تعالى قد أودع فطرة الإنسان قوة ليتغلب بها على نفسه. انظروا إلى الماء فقد أودع فيه خاصية إخماد النار، فمهما سخنتم الماء حتى ولو جعلتموه حاراً كالنار مع ذلك لو ألقى على النار لأخمدها؛ فكما أن الإخماد من خصائص الماء كذلك الطهارة من فطرة الإنسان. لقد وضع الله تعالى مادة الطهارة في كل إنسان. فلا تقلقوا من أنكم واقعون في الذنوب. إنما الذنب كالوسخ على الثوب ويمكن أن يُزال. فلو دعوتم الله تعالى متضرعين فلن يضيعكم مهما كانت

طبائعكم خاضعة لجذبات النفس، لأن الله تعالى حلِيم وهو الغفور الرحيم".^{١٥}

إنها رسالة أمل كبير، وهي مذكورة في القرآن الكريم مجملاً ولكن لم يذكرها أي كتاب آخر بهذه الصورة كما ذكرها المسيح الموعود عليه السلام مستوحياً إياها من القرآن الكريم، وإذا أمعنا النظر في شرحه عليه السلام لاعترفنا أنه عليه السلام قد أجاد وأوفى.

يتضح من العبارة السابقة أن الإنسان مخلوق من مادة لو أحسن استخدامها خلصته من جميع الذنوب وأدت إلى إصلاحه.

الإم تميل الفطرة الإنسانية.. إلى الحسنة أم إلى السيئة؟

هنا ينشأ السؤال: هل تميل الفطرة الإنسانية إلى الحسنة؟ والجواب: إنها لا تميل إلى الحسنة ولا إلى السيئة، لأن الله تعالى قد خلق الإنسان ووهبه قوى وقدرات عالية جداً ومكّنه من استخدام هذه القوى في الحسن والسيئ على حد سواء ثم أراه الصراط المستقيم وبعد ذلك تركه ليتصرف كما يشاء، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٤).. أي أننا

¹⁵ خطاب الجلسة السنوية، جريدة "بدر" بتاريخ ١٧ يناير ١٩٠٧ ص ١٥-

أودعنا الإنسان جميع أنواع القوى والقدرات التي يستطيع باستخدامها أن يكون شاكرًا لله تعالى أو كافرًا به.

لماذا تكثر السيئة في العالم؟

هنا ينشأ السؤال: إذا كان بوسع الإنسان كبح جماح ارتكاب السيئة فلماذا تكثر السيئة في العالم إذن ولماذا تقل الحسنة فيه؟ لقد أجبْتُ على هذا التساؤل في أحد خطاباتي السابقة وأتطرق إليه الآن أيضا لأنني تلقيت في الفترة الأخيرة هذا السؤال نفسه من أربعة أو خمسة من الإخوة من أماكن مختلفة، ولا أعرف كيف نشأ عندهم هذا التساؤل في وقت واحد.

الحق أن أعمال الخير في العالم تزيد عن أعمال الشر. خذوا مثلا: إذا كان أحد يعتاد السرقة وإلى جانب ذلك يقوم بأعمال الخير بحيث يكون خلوقًا وجوادًا، وبرًّا بوالديه، فهل تكثر عنده أعمال الشر أم الخير؟ فلو أخذتم في الاعتبار هذه المقارنة بين الأخلاق لعلمتم أن أعمال الشر أقل بكثير من أعمال الخير، وستلاحظون أن معظم الناس يتحلون بأخلاق حسنة أكثر من السيئة.

تنشأ هذه الشبهة لسببين اثنين؛ أحدهما: لأن الناس يرون أن عدد الكفار في العالم أكثر من المؤمنين. ثانيهما: لأنهم يلاحظون عيوبًا في

معظم الناس. ولا يمثل هذان الأمران دليلاً على قولهم بل يفوق الخير الشر في العالم رغم هذين الأمرين. لو تناولنا الأمر الأول.. وهو أن عدد الكفار في العالم أكثر من المؤمنين.. للاحظنا أنه توهم ناجم عن قلة التدبر في الحقيقة. ليس صحيحاً أن الكفار يمثلون الأكثرية في العالم، بل أكثر عدد الذين أطلقت عليهم تسمية الكفار، لأنكم إذا حققتم في الأمر لوجدتم كثيراً من الناس لم تقم عليهم الحجة من الناحية الباطنية، فإن هؤلاء يسمون كفاراً بناء على ظاهر الشريعة إلا أنه ليست فيهم حقيقة الكفر عند الله تعالى، فيما أن يعطيهم الله تعالى فرصة أخرى للتمييز بين الكفر والإيمان أو يحاسبهم بناء على أعمالهم الفطرية من شرك أو توحيد. فإذا راعينا هذه الحقيقة تأكدنا أن الإيمان أكثر من الكفر وبالتالي فإن أعمال الخير والحسنة أكثر من الشر والسيئة.

والسبب الثاني - وهو مشاهدتهم عيوباً كثيرة في الناس - باطل أيضاً، لأن القضية لا تتعلق بوجود معائب أو أخطاء في الناس، بل القضية هي: هل يبدو الشر في الناس أكثر من الخير؟! فلو ثبتت كثرة أعمال الخير في الناس ثبتت كثرة الخير في العالم كله. وإن النظرة الشاملة على أعمال الناس تثبت أن أعمال الخير فيهم أكثر، مما يدل على أن أعمال الخير في العالم أيضاً أكثر من أعمال الشر.

يثير بعض الناس في مثل هذه المواقف تساؤلاً مفادُه: إذا كان معظم الناس يتلقون عقاباً من الله تعالى فمعناه أن الشيطان كان منتصراً في نهاية المطاف. أقول: لا، بل انتصر الله تعالى وحده، وذلك لأن الله تعالى قد قرر أن الجميع سيدخلون الجنة بعد قضاء فترة عقابهم. يقول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٧).. أي لقد خلقت الناس ليصبحوا عبداً لي، فكيف يمكن إذاً أن يبقى عباد الله في العقاب الدائم؟ بل يتضح من هنا أن الجميع يُخرَجون من الجحيم في وقت من الأوقات، كما يتضح من الآيات والأحاديث الأخرى أن الجميع يدخلون الجنة في يوم من الأيام، وهكذا فيصير الجميع عبداً لله تعالى، فيكون الله ﷻ قد انتصر. ثم إن الشيطان أيضاً في نهاية المطاف لن يبقى خارج الجنة بل هو الآخر سيدخلها. وهكذا فسيتلقى هزيمة نكراء على مستوى نفسه أيضاً. فمن قال الآن إن الشيطان قد انتصر سيندم على قوله عند رؤيته في الجنة وسيقول كنت أعتبره منتصراً إلا أنه هُزم فخضع لله فوصل إلى هنا.

والآن أعرف مرة أخرى الإنسان الفاضل، فهو ذلك الإنسان الذي يجتنب ارتكاب الإثم حتى تنجو روحه من الهلاك الأخرى،

والمراد من الهلاك الأخرى سخط الله تعالى؛ ومن يعمل خيراً يحظى بقوة فورية للتقدم السريع نحو نيل رضا الله تعالى، وإلا فإن هذه القوة ستتولد في الجميع في نهاية المطاف.

ما هو الإثم؟

وأذكر الآن ما هو الإثم.. إنما الإثم عملٌ يُسقمُ روح الإنسان فلا تصلح لرؤية الله تعالى، وتواجهها صعاب كثيرة في تحقيق الهدف الذي خلقت لأجله. بعض هذه الأعمال الضارة مادية وأخرى روحانية. أما المادية منها فأضرار معظمها أظهرُ من الشمس مثل الكذب والقتل وغيرهما.

ما هي الأعمال الصالحة؟

هي تلك الأعمال التي تتقوى بها الروح الإنسانية لدرجة تتأهل لرؤية الله تعالى. من المعتاد أن يجد الأطباء مرضاً عند الجميع ولكن الإنسان السليم حقاً هو من يقدر على إنجاز أعماله. فالعمل الصالح هو ما يجعل الإنسان صالحاً لرؤية الله تعالى. وهو عبارة عن أفعال مادية وروحانية.

أنواع الإثم أو الخطيئة

لا بد من معرفة أنواع الإثم لفهم الموضوع الأساس الذي نحن بصدده. واعلموا أنها ثلاثة؛ (١) إثم القلب، وهو الإثم الحقيقي. (٢) إثم اللسان. (٣) إثم الجوارح كاليد والقدم والأعضاء الأخرى.

ما هي أنواع الصالحات؟

الأعمال الصالحة أيضا تنقسم إلى ثلاثة أنواع؛ (١) صلاح القلب، وهو الصلاح الحقيقي. (٢) صلاح اللسان. (٣) صلاح الجوارح.

من أين يتولد الإثم بوجود هذه القوى الكثيرة للأعمال الصالحة؟

بعد قراءة ما سبق يمكن أن ينشأ تساؤل مفاده: إذا كان الله تعالى قد أودع الإنسان هذه القوى الكثيرة لرقبه فمن أين يتولد لديه الإثم؟ والرد عليه كما يلي: ينشأ الإثم من الأمور الآتية: من الجهل أو عدم العلم، أي يتغافل الإنسان أحيانا عن استخدام الفكر والعقل لدى إشباعه غرائزه الطبيعية من أجل تحقيق الفرحة والسرور لنفسه، فيؤثر سروره المؤقت هذا على الفرحة الدائمة، ويلهيه عن راحته الدائمة، وإليكم موجباته:

الأول: الجهل الدائم أو المؤقت كلاهما. الجهل الدائم واضح، أما المؤقت فهو أن يتصرف الإنسان كالجاهل في وقت من الأوقات رغم علمه، وها هي أسبابه: (١) الطمع أيضا يوِّلد الجهل. (٢) الغضب. (٣) شدة الحاجة والعوز. (٤) الاعتلال. (٥) الجزع. (٦) الوله أيضا يوِّلد الجهل. (٧) الآمال العريضة. (٨) شدة اليأس والقنوط. (٩) التعتت. (١٠) الرغبة العارمة. (١١) قلة الرغبة. (١٢) الوراثه، وهذا يعني أن بعض الأفكار تنتقل بالوراثة أحيانا وتسيطر على جميع الأفكار الأخرى. هذه هي الذرائع الاثنتا عشرة التي يتولد منها الجهل.

الثاني: الأمر الثاني الذي يتولد منه الإثم هو أثر الصحبة. إن الإنسان مفطور على التقليد بحيث يقلد ما يراه حادثا حوله دون أن يفكر في نتيجة التصرف الذي يقلده. وأكثر ما يتأثر به الإنسان صحبةً والديه وأقاربه ورفقائه الذين يعيش ويلعب معهم، كما يتأثر بصحبة أساتذته أيضا، ويندرج تحت هذه القائمة التقاليد الشعبية التي يتأثر بها الإنسان تأثراً عميقاً.

الثالث: يتولد الإثم من العلم المغلوط أيضا، وهو أن يعدَّ الإنسانُ أموراَ من صميم العلم الصحيح وهي ليست كذلك، وهكذا يتبع أصولا خاطئة.

الرابع: يتولد الإثم من العادة أيضا؛ لأن من اعتاد ارتكاب سيئة ما لا يستطيع تجنبها في بعض الأحيان مع علمه بأنها سيئة. فمثلا: يدرك أحدهم أن شرب الخمر عمل سيئ فيعقد العزم على تجنبها، ثم يخرج فيتوجه - في يوم تلبدت فيه السماء بالغيوم - إلى بعض أصحابه الذين يشربون الخمر فينادونه ليشاركهم معهم فيفقد السيطرة على نفسه ولا يستطيع الثبات على عزمه الذي عقده في نفسه.

الخامس: يتولد الإثم من الكسل والغفلة أيضا، وهو أن الإنسان يعلم أحيانا حقيقة عمل سيئ ولا يعتاد فعله، مع ذلك لا يتشجع للقيام باللازم تجاهه، إنما يقول في نفسه سوف أقوم به لاحقا، وهكذا يمرّ الوقت فيقع في المعصية بعد فوات الأوان. وقع في زمن النبي ﷺ مثل هذا الحادث حيث ظل أحد الصحابة المخلصين جالسا في بيته ظنًا منه أنه سيخرج للمشاركة في الحرب لاحقا، ويستطيع اللحاق بجيش المسلمين متى شاء، وكانت النتيجة أنه لم يستطع ذلك.¹⁶ باختصار، التكاسل أيضا سبب من أسباب وقوع الإنسان في الإثم أحيانا، ويفتقر مثل هذا الإنسان المتكاسل إلى قوة تدفعه نحو النهوض للعمل.

¹⁶ انظر البخاري كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك. (الناشر)

السادس: يتولد الإثم من عدم القدرة على التفريق بين الأمور، أي عدم القدرة على التمييز بين الحسن والقبيح. أو عدم القدرة على استخدام عاطفة ما في محلها المناسب وبقدرها المناسب، مثلاً، إن الحب عاطفة جميلة، ولكن لو أحب أحد زوجته أكثر من أمه فإن ذلك يدل على النقص في قوته لاتخاذ القرار المناسب، لأن لأمه عليه منة عظيمة إذ كانت سبباً لانتقاله من العدم إلى الوجود، أما الزوجة فيرتبط بها بعلاقة التعاون كما أنها تشبع بعض رغباته. ومثله كمثل الذين يقولون في هذه الأيام: نؤمن بأن مرزا غلام أحمد صادق ولكن لا نستطيع أن نبايعه إذ قمنا ببيعة المرشد الفلاني مسبقاً، وهذا يدل على نقص في قوتهم لاتخاذ القرار المناسب.

السابع: ويتولد الإثم من الانجرار وراء التيار الخفي لبعض الأفكار السائدة. لم أتطرق إلى تفاصيل الأسباب السابقة أما هذا السبب فلا بد أن أفصل فيه قليلاً لتعقلوه وتستوعبوه.

إذا ساد في العالم تيار فكري معين فلا بد أن يتأثر به الناس حتى لو لم يكن هناك دافع لقبوله أو دليل للاقتناع به. فلو أجلسنا رجلاً صالحاً بين عشرة من الأشرار، فلا بد أن يتأثر قلب هذا الصالح بسيئتهم ولو استبطنوها ولم يُظهرها أمامه. بعث أحد الشباب السيخ رسالة إلى المسيح الموعود عليه السلام - لأنه كان يخلص لحضرته

السَّيِّدُ - عن طريق الخليفة الأول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال فيها: تراودني أفكار إحدادية منذ أيام قليلة. فلما قرأ الخليفة الأول هذا الأمر على المسيح الموعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قل له أن يغير مكان جلوسه في الكلية. وعُلم بعد ذلك أنه منذ تغييره مكان جلوسه أخذت أفكاره تصفو وتعود إلى طبيعتها. والسبب في ذلك أن جلسه في الصف كان يُطن أفكاراً إحدادية دون أن يظهرها علناً، ومع ذلك فإن الطالب السخي تأثر بها بسبب قربه منه.

فلا يمكن لأحد أن ينكر تأثير مثل هذا التيار الفكري، لأنه ثابت من في القرآن الكريم وأحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضاً. ومثاله في الحيوانات أوضح ما يكون، فعلى سبيل المثال يحدث كثيراً أن تبدأ قطتان شجاراً ولكن بعد مواء غضب قصير تدسّ إحدهما ذنبها بين رجلها وتهرب دون أية مواجهة.

كذلك جربوا جمع أربعة أو خمسة أسود في مكان واحد فلا يبقى فيه إلا الأقوى منها، أما الأخرى فتتسلل خافضة أذناهما، ولو ألقي بينها لحم وهي في الوضع المذكور فسيأكله الأقوى منها، أما الأخرى فستظل واقفة على بعد دونما حراك.

كنت قد أجريت اختباراً لقوة التنويم المغناطيسي - وهو التأثير من خلال الأفكار- لأردّ على الاعتراضات التي يوجهها هذا العلم

إلى الروحانية. قالت لي جدتي لأمي: إنها قصص وهمية ولا حقيقة لها، وأشارت إلى عصفور على بعد مترين تقريبا قائلة: لو أمسكت بهذا العصفور آمنّا بحقيقة هذا العلم. فجعلت أحقق في عيني ذلك العصفور وأثرت فيه ثم اقتربتُ منه جداً فلما هممت لأمسك به وقعتُ يدي بيني وبين عينيه وأدت إلى قطع تيار هذا التأثير فطار هرباً من يدي.

يقول أحد السياح: رأيت في الغابة سنجاباً يجري بسرعة هائلة دون أن يغادر ذلك المكان. فلما اقتربت رأيت حية ترفع رأسها وتحقق فيه، وفي نهاية المطاف اقترب السنجاب من الحية التي كادت أن تلتهمه فضربتها بسوطي فلاذت بالفرار. وكان تأثير الحية هذا قوياً بحيث لم يستطع السنجاب الهرب من هناك بل أدى ذلك إلى اقترابه منها في النهاية.

وروى سائح آخر: رأيت في إحدى الغابات الإفريقية طيراً ينفذ بجناحيه، فلما اقتربت منه رأيت حية تحقق النظر فيه فقتلتها، ثم رأيت أن الطير أيضا مات خوفاً.

وقد أجري الاختبار في إنجلترا بطريق آخر حيث جيء بحشرتين من جنس واحد ووضعت إحداهما على مسافة خمسة أميال من

الأخرى ومع ذلك وصلت الأخرى إلى الأولى، لا شك أن ذلك كان نتيجة لتيار الأفكار.

صنع دكتور في أمريكا بيتًا للنمل ووضعه في مكان مغلق من جميع الأطراف، فلوحظ بعض النمل على الجدار الخارجي للمكان المغلق الذي كان فيه بيت النمل فلما فتح المكان المغلق أدرك أن النمل على الجدار الخارجي كان على مكان يجاذي بيت النمل تمامًا، فلما غيّر مكان بيت النمل غيّر النمل في الخارج أيضا مكانه بحسبه رغم الجدار الحائل بينها.

فقد تبين مما سبق أن تيار الأفكار قوة عظيمة. وثبت عن طريق النبي ﷺ أيضا أنه كلما جلس في مجلس استغفر الله تعالى سبعين مرة^{١٧}. هذا لا يعني أنه كان يخشى أن يتلوث ببعض الأرجاس، بل كان يستغفر الله تعالى حتى يبقى بعيدًا عن هذه الأدناس والأرجاس. وهناك بعض الناس الذين ليسوا بفاسدين إلا أن لديهم استعدادًا كبيرًا لقبول تأثير الآخرين، وكان النبي ﷺ يستغفر لأمثالهم أيضا حتى لا يتأثروا بأفكار مفسدة ببال غيرهم.

حالات التدنس بالإثم

لا بد من معرفة حالات التلوث بالإثم من أجل مكافحته، لذلك سأتناول ذكرها فيما يلي:

الحالة الأولى: ينظر المرء إلى الإثم بنظرة الكراهية والنفور إلا أنه يرتكبه أحياناً.

الحالة الثانية: مع اعتباره الإثم شيئاً سيئاً لا يستطيع مقاومة الأطماع والمغريات فيقع فيه.

الحالة الثالثة: لا يعتبر الإثم شيئاً ولا يرغب في ارتكابه أيضاً، أي أنه لا يكره الإثم ولا يحجم عن ارتكابه إذا وجد فرصة لذلك.

الحالة الرابعة: يرغب في ارتكاب الإثم إلا أن مادة الحياء فيه تمنعه عن ارتكابه جهراً فيرتكبه خفية. وإذا امتنع عن ارتكابه فإنما يمتنع بسبب التقاليد الاجتماعية والأعراف.

الحالة الخامسة: يخرق حاجز التقاليد والأعراف الاجتماعية ويتجرأ على ارتكاب الإثم راغباً فيه.

الحالة السادسة: يحث الآخرون على ارتكاب الإثم ويستحسنه.

الحالة السابعة: يصبح الإنسان مظهرًا للشيطان لدرجة يصبح نشر السيئة شغله الشاغل.

وهناك حالات العمل بالخير وكسب الحسنات أيضا مقابل أحوال التلوث بالإثم.

الأول: أن يعمل خيراً بنية الثواب من الله.

الثاني: أن يعمل خضوعاً لأمر الله تعالى وأداء للفرض الواجب عليه.

الثالث: أن يعمل خيراً من أجل الخير والفضيلة.

الرابع: أن يعمل خيراً بسبب عاداته الطبيعية.

الخامس: أن يجد متعة في أعمال الخير.

السادس: أن يسعى لنشر الخير في العالم كله.

السابع: أن يصبح خيراً مجسداً، وأن يصير هدفه الوحيد هو نشر

الخير والفضيلة في العالم كله، أي أن يكون مثيلاً للملائكة.

وهناك درجات أخرى أعلى منها أيضا ولكنها لا تُكتسب بل

هي موهبة من الله تعالى أي أنها مدارج النبوة.

لقد سبق أن ذكرت الفرق بين الأخلاق والروحانية فالأخلاق

هي أعمال الإنسان وصفاته التي تتعلق ببني جنسه، أما ما يتعلق من

أعماله وصفاته بالله تعالى فهي الروحانية، لذلك فعلاجهما الأساسي

واحد فلن أضطر لذكر علاج أمراض الأخلاق والروحانية بشكل

منفصل، كما لا يسعني هنا ذكر العلاج الذي ذكرته الأديان الأخرى أو المتصوفون. لذلك بعد التفاصيل التي أوردتها أتطرق الآن إلى ذكر التعليم الإسلامي المتعلق بمعالجة الإثم وفق فهمي.

قبل التعرض لعلاج الإثم المرتكب، أقول قد أثار الإسلام بحثاً شاملاً عن الاحتياطات اللازمة المانعة من اقتراف الإثم. والحقيقة أن هذا البحث يتضمن مفتاحاً لإزالة الإثم وعلاجه. فبدلاً من أن نفكر في غسل الثوب بعد اتساخه، أفليس من الأفضل أن نتخذ الإجراءات اللازمة كي لا يتسخ الثوب أصلاً؟ لا شك أنه أفضل وأحوط ويقع على جانب كبير من الأهمية، إذ نرى أن الإسلام، خلافاً للأديان الأخرى، لم ينبه إلى طرق التخلص من الإثم فحسب، بل أوصى باتخاذ بعض الإجراءات الكفيلة بعدم صدور الإثم أصلاً. رغم تنبيه القرآن الكريم المسلمين إلى هذا الأمر وتركيز بعض الصلحاء المسلمين على هذه النقطة، إلا أن المسلمين كأمة لم يهتموا اهتماماً كافياً بهذا الأمر بل تجاهلوه، وهو أن السيئة تنشأ قبل بلوغ الإنسان الحلم. فعند قول الناس إن فلانا يرتكب آثاماً تكون بذرة الإثم الكامنة فيه قد تحولت إلى شجرة وغدت تبرز للعيان، وإلا فلا يمكن أن تنشأ شجرة بدون أن تكون هناك بذرة لها. فإن لم تكن لديه القابلية على ارتكاب الإثم مسبقاً فمن أين جاءته بعد بلوغه

الحلم؟ الحقيقة أن الذنب أو القابلية على ارتكاب الإثم ينشأ منذ الطفولة، والسيئة تتجذر في قلب الإنسان قبل بلوغه الحلم، بل إن بعض السيئات تبدأ بالنشوء في الطفل وحتى قبل ولادته. فعندما يبلغ أحد الحلم يقول العلماء: أنقذوه من السيئات، والحقيقة أنه إلى ذلك الحين يكون قد وقع تحت سيطرة الشيطان وقوعاً تاماً. لا يعني قولي هذا أنه قد نشأت فيه جميع أنواع السيئات والموبقات بل المراد منه أنه قد نشأت فيه القابلية على ارتكاب الإثم والميل نحو ارتكابه.

سبق أن ذكرت أن الأخلاق تنشأ من بعض خواص المادة، فلو فسدت هذه الميول في الطفولة فإن الطفل البريء في الظاهر يكون معداً لجميع أسباب ارتكاب الإثم.

تدبروا الآن، من أين تنشأ السيئة؟ ألا تنشأ من الوراثة؟ نجد في أولاد الأقوام المميزة ميولاً متشابهة نحو بعض الأعمال. كذلك إذا تلاشت في قوم من الأقوام روح الشجاعة نسلاً بعد نسل فإنهم سيجبنون وقت الحرب والقتال مهما حاولنا تشجيعهم، أو على الأقل لن تظهر منهم الشجاعة والبرسالة كما تظهر ممن اشتهروا بالشجاعة نسلاً بعد نسل. ومع أن هذه الأمور قابلة للإصلاح، إلا أنها خاضعة لتأثير الوراثة. بالإضافة إلى ذلك تتولد السيئة من الطمع والغضب والخوف والحب وتوقد الرغبة وغيرها. لاحظوا الآن،

أليست هي تلك الخصال التي يتعلمها الولد في الصغر؟ أليست التصرفات التي تبدو بريئة في صغره هي التي تؤدي إلى نشوء الذنوب والسيئات عنده؟ عندما تظهر مثل هذه التصرفات من الطفل يقول أبواه إنه صغير لذلك تصدر منه. ولكن أليس الصغر هو الزمن الذي يُنقش فيه كل شيء عميقاً؟ فلو عَلِّم سارقُ أموال الناس في صغره ضبطَ النفس لما ارتكب السرقة بعد أن كُبر. يخرج أحد مجاهداً إلا أنه يفرّ خوفاً من العدو فيقول عنه الناس في حيه: ما أحبته! ولكن ألم تكن القصص المخوفة والباعثة على الجبن التي كانت تروى لها أمه في الصغر هي السبب في فراره من جبهة القتال؟

كذلك الغضب، لا يهتم الآباء بولدهم في هذا الجانب أيضاً، ثم إذا كبر صار يتشاجر مع الجميع.

ثم ألا تتولد السيئة من ضعف العزيمة؟ وهل يحدث هذا الضعف بدون أي سبب؟ هل فكرتم في السبب وراء انكسار عزيمة الإنسان مرة بعد أخرى طول حياته حتى إنه لا ينجز شيئاً؟ لم يحدث ذلك في يوم واحد، بل نشأ فيه منذ صغره، بل الصحيح أنه ينشأ في الصغر فحسب، وإلا فما السبب في فشله في الإقلاع عن السيئة مع رغبته الصادقة في تركها؟ فلو لم تكن تربيته فاسدة لكان يكفيه القول بأن هذا الأمر سيئ حتى يجتنبه، وأن هذا الأمر حسن فيعمل به.

والآن أخبركم كيف يمكن حماية الأولاد من هذا الضعف والنقص. أول ما يفتح باب الإثم لدى الإنسان تأثير تلك الأفكار التي يحملها أبواه قبل ولادته. فلا بد من سد هذا الباب أولاً، وينبغي أن يرحم الناس أولادهم فيجعلوا أفكارهم طاهرة ونقية. فإن لم يستطيعوا ذلك كل حين وأن فليتبخوا العلاج الذي يقدمه الإسلام ليحموا أولادهم إلى حد ما. يذكر الإسلام علاجاً للذنب المكتسب وهو أن يدعو كلٌّ من الرجل والمرأة عند الجماع الدعاء التالي: بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا^{١٨}.

هذه ليست شعوذة ولا سحراً، وليس ضرورياً ترديد هذه الكلمات العربية، بل يمكن للإنسان أن يقول بلغته: اللهم إن الذنب شيء قبيح فاحفظنا منه واحفظ ولدنا الذي ستهبه لنا. فإن هذا التفكير في مثل هذا الوقت يحول بين ذنوبه الوراثية وبين ولده. وقال النبي ﷺ لو قُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ بَعْدَ هَذَا الدَّعَاءِ لَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ دَخْلٌ. لعل البعض يستغرب أنه دعا بهذا الدعاء مرات عديدة إلا أنه لم يأت بالنتيجة المرتقبة. والرد على هذه الشبهة كالتالي:

18 البخاري، كتاب التوحيد، باب السؤال باسماء الله تعالى والاستعاذة بها.

أولاً إنهم لا يدعون هذا الدعاء بالطريق الصحيح بل يستخدمونه كوردٍ يعتادون ترديده دون التركيز على معانيه.
ثانياً إنه ليس علاجاً لجميع السيئات بل تعالج به السيئات التي تنتقل ممارستها وراثياً.

بعد انتقالها وراثياً تبدأ السيئة بتلويث أفكار الإنسان منذ صغره. ولقد عالج الإسلام هذا الأمر أيضاً إذ اعتبر رسول الله ﷺ بداية زمن تربية الطفل بعد ولادته مباشرة. وأرى أنه لو كان بالإمكان تربية الطفل وهو في الرحم لقال النبي ﷺ بتربيته منذ ذلك الوقت، وما دام ذلك ليس ممكناً لذلك بُدئت تربيته من وقت ولادته، ولأجل ذلك قال ﷺ: إذا وُلد لأحد وكد فعله أن يؤذن في أذنه^{١٩}. إن كلمات الأذان لا تُلقى في أذن الولد من أجل عمل الشعوذة أو السحر، بل القصد منه إفهام الوالدين أن وقت تربية الولد قد بدأ من الآن.

بالإضافة إلى الأذان أمر النبي ﷺ بتعليم الأولاد الأدب من الصغر، كما قدم أسوته ﷺ بتعليمه بعض أعزائه في صغرهم، فقد ورد في الأحاديث أن الإمام الحسن رضي الله عنه كان صغيراً وقال له النبي ﷺ عند

¹⁹ انظر كنز العمال رقم الحديث ٤٥٤١٤. (الناشر)

تناول الطعام: كُلْ بيمينك ومما يليك^{٢٠}. لعل عمر الإمام الحسن عليه السلام في ذلك الوقت يقارب السننتين ونصف. أما ما يحدث في بلادنا فإن الولد يدخل يده في الطعام كله ويملاً فمه ويلطخ به ثياب من حوله، وأبواه يضحكان جالسين دون أدنى مبالاة، أو يكتفيان بقول عابر له لا يقصدان منه تربية ابنهما بل لإراءة الناس أنهم قد قاموا بواجبهم. وردت في الحديث واقعة أخرى أن الإمام الحسن عليه السلام أكل مرة تمرة من تمر الصدقة فأدخل النبي صلى الله عليه وسلم إصبعه في فمه وأخرجها منه^{٢١}. وكأنه كان يريد القول: عليك أن تأكل بكدميمينك ويجب ألا تكون عالية على الآخرين.

باختصار، إن التربية في الصغر هي المسؤولة عن تصرفات الإنسان في حياته المقبلة. فلقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"^{٢٢}، كذلك فإن أبويه يجعلانه مسلماً أو هندوسياً أيضاً. لا يعني هذا الحديث أن الطفل

²⁰ البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين.

(الناشر)

²¹ انظر البخاري، كتاب الزكاة، باب ما يذكره في الصدقة للنبي صلى الله عليه وسلم.

(الناشر)

²² صحيح البخاري، كتاب الجنائز. (الناشر)

عندما يبلغ الحلم يأخذه أبواه إلى الكنيسة فينصّرانه، بل المعنى أن الطفل يقلّد أبويه ويستمع إلى أحاديثهما، لذلك يصبح على ما عليه أبواه. الحقيقة أن الطفل مفطور على التقليد، فإن لم يعلمه أبواه شيئاً قلّد أفعال الآخرين. يقول البعض يجب أن نترك الأولاد أحراراً فسيصبحون أحمديين بأنفسهم عندما يكبرون. ولكنني أقول: إن لم يسمع الطفل أصواتاً أخرى من حوله فمن الممكن أن يقبل الأحمديّة عندما يسمع عنها في شبابه، ولكن إذا كانت أصوات أخرى أيضاً تتناهى إلى سمعه بشكل متواصل فلا بد أن يتعلم هذه الأمور من صغره، فتتكوّن شخصيته على ضوء ما شاهده بعينه وسمعه بأذنيه. فإن لم تُسمعه الملائكة كُلامها فلا بد أن يصبح الشيطان قريناً له. وعليه فإن لم تُلقَ في أذنه أحاديث البر والخير فسيتلقى أحاديث الشر حتماً ويصير فاسداً وشريراً. فإذا كنتم تريدون أن تضعوا حداً للسيئات فلا بد لكم أن تصنعوا لأولادكم معسكراً منعزلاً من الناحية التربوية حتى تنزعوا عنهم القابلية لارتكاب الإثم، وبالتالي ستكون أجيالنا القادمة في مأمن منه.

طرق التربية

والآن أسلط الضوء على طرق التربية وهي:

- ١- الأمر التربوي الأول عند ولادة الطفل هو الأذان في أذنه، وقد شرحت ذلك قبل قليل.
- ٢- يجب المحافظة على نظافة الطفل بحيث يجب تنظيفه مباشرة بعد تبوّله أو تبرّزه. لعل بعض الرجال يجذون هذا القول لأنه يتعلق بالسيدات. ولكنني أقول: يجب أن ينتبه إليه الرجال أولاً حتى ينبهوا أزواجهم. فعلى الرجال أن يفهموا النساء هذه الأمور أنه لا يمكن أن تنشأ أفكار نظيفة لدى طفل غير نظيف. ولكن لوحظ عدم الاهتمام بهذا الأمر في مجتمعنا حيث إذا شعر الطفل بحاجة إلى التبرّز جعلته بعض الأمهات يتبرّز في ثوب ثم يطوينه ويتأبطنه. ولقد رأيت في القرويات من حول قاديان أنهن يجلسن أطفالهن على الحذاء ليتبرّز فيه ثم يرمينه هنا وهناك. فإن لم يكن ثمة اهتمام بالنظافة الظاهرة للطفل فلا يمكن أن يتحلى بالنظافة الباطنية، ولكن إذا كان الطفل نظيفاً في الظاهر فلا بد أن يعكس ذلك على باطنه فيصبح باطنه أيضاً نظيفاً وطاهراً لكونه في منأى عن التلوّث بتلك الذنوب التي تتولد بسبب الأوساخ والأدران. وقد ثبت طبيّاً أن الذنب يتولد في الإنسان في

البداية بسبب الوسخ. فإن لم يكن فرج الطفل نظيفاً فلا بد أنه يحكه وبالتالي يشعر بلذة وهكذا يطلع على القوة الشهوانية في صغره. ولو روعيت نظافة الطفل ونُبّه كلما كبر إلى غسل هذه الأماكن ونظافتها فبإمكانه أن يُحفظ من المساوئ الشهوانية إلى حد كبير، ويجب أن تبدأ مثل هذه التربية من يوم ولادته.

٣- يجب تغذية الطفل في وقت معين، مما يبعثه على كبح جماح رغبته فينجو من كثير من الذنوب، إذ إن السرقة وأعمال النهب وغيرها من السيئات تتولد نتيجة عدم السيطرة على الرغبة العارمة، لأن مثل هذا الإنسان يفقد السيطرة على عواطفه. والسبب في ذلك أنه كلما بكى في صغره أرضعته أمه فوراً. هذا التصرف ليس صحيحاً بل يجب أن يُرضع في وقت معين.

أما الأطفال الكبار فيجب أن يعطى لهم الطعام في وقت محدد مما يولّد لديهم الصفات التالية:

(١) الشعور بالتقيد بالوقت.

(٢) كبح جماح الرغبة العارمة.

(٣) المحافظة على الصحة.

٤) التعود على العمل المشترك. فلو واطبوا على الأكل جميعا لتنزه مثل هؤلاء الأطفال عن الأنانية واتباع الأهواء النفسانية.

٥) تجنب الإسراف، لأن من يأكل بين حين وآخر فلا بد أن يأكل شيئا مما يعطى له ويُضَيِّع أيضا، ولكنه لو أعطي قدرًا معينًا من الأكل في وقت معين فلن يضيع منه شيئًا، كما سيتدرب على الاكتفاء بشيء قليل وسد الجوع وكبح جماح الرغبة العارمة.

٦) محاربة الطمع، مثلا يمر الطفل من السوق فيرى شيئا فيها فيصر على أخذه، فلو لم يشتتر له أبواه ذلك لكَبَحَ رغبته، مما يدربه على التصدي للأطماع عندما يكبر.

كذلك لو كانت مثل هذه الأشياء موجودة في البيت فيجب أن يقال للطفل أنه يتلقاه وقت الطعام، وهذا الأمر هو الآخر يولد فيه القوة لدفع الرغبات النفسية. وبإمكان الفلاحين اتباع الطريق المذكور بخصوص المؤونة المتوفرة لهم مثل قصب السكر، أو الفجل والجزر أو السكر البلدي وغيرها.

٤- يجب تعويد الطفل على التبرّز في وقت معين، إذ إنه مفيد لصحته وإلى جانب ذلك تتولد في أعضائه حاسة التقيد بالوقت، وبذلك تتعود أمعاؤه فلا يشعر بحاجة إلى التبرز إلا عند الوقت المعين. إن بعض الناس في أوروبا بسبب شعورهم بحاجة إلى التبرز يستطيعون أن يخبروكم ما الوقت الآن لأنهم لا يشعرون بهذه الحاجة إلا عند وقت معين، وهذا الأمر مهم جداً للطفل. ينشأ الطفل المتقيد بالوقت مواظبا على الصلاة والصوم فلا يؤخر المهام الجماعية. علاوة على ذلك سيتحلى بقوة لإخماد ثوائره التي تكون في غير محلها، لأن أحد أكبر أسباب ظهور مثل هذه الثوائر هو قيامه بأعماله في غير وقتها المحدد ولا سيما الأكل والشرب، مثلا: كان الطفل مشغولا في اللهو واللعب، فدعته أمه لتناول الطعام في وقته المحدد إلا أنه لم يأت، ثم عندما جاء قالت له أمه تريث حتى أسخن لك الطعام، ولكنه يكون جوعان فلا يتمالك نفسه فيبدأ بالبكاء ويخرج ثوائره في غير محلها، لأنه لا يأتي إلا عندما يشتد عنده الجوع ولا يتمكن من مقاومته، فيثير الشغب.

- ٥- كذلك يجب أن يعطى له الطعام بكمية محددة يوميًا، مما يولد لديه القناعة ويبعده من الحرص والطمع.
- ٦- يجب التنويع في الأطعمة، فيطعم اللحم والخضار والفواكه، لأن الأطعمة المختلفة أيضا تولد أنواعًا من الأخلاق. فلا بد من مراعاة التنويع في تغذية الأطفال لتتولد لديهم الأخلاق المتنوعة، إلا أنه يجب الإكثار من الخضار في الصغر والإقلال من اللحم، فاللحم يولد الإثارة التي يجب ألا تزداد في الطفولة.
- ٧- كلما نما الطفل ينبغي أن يُطلَب منه بعض الأعمال البسيطة على سبيل اللعب، كأن يُطلَب منه أن يأتي بإناء أو يضع شيئًا في مكان معين، أو يناول أحدًا شيئًا آخر، كما ينبغي أن يسمح له باللعب لبعض الوقت أيضا.
- ٨- ينبغي تعويد الطفل على كسب الثقة بالنفس، مثلا إذا كان يريد شيئًا موجودا أمامه فيجب أن يقال له: ستناله في وقت معين. وليس الحل إخفاء هذا الشيء لأنه سيتأسى بهذه العادة ويعتاد السرقة.

٩- ينبغي عدم المغالاة في مداعبة الطفل إذ أن الإكثار من المداعبة والتقبيل يولد لديه ردائل كثيرة لأنه في هذه الحالة سيتطلع إلى حب الناس واهتمامهم حيثما ذهب مما يولد لديه عيوباً أخلاقية وشروراً كثيرة.

١٠- يجب على الوالدين التحلي بالإيثار، مثلاً إذا كان الطفل مريضاً ومُنِعَ من أكل شيء ما فلا يأكله أيضاً، بل يجب ألا يجلباه إلى البيت أصلاً وأن يقولوا له: لأنك لا تأكله فلا نأكله نحن أيضاً، هذا ما سيخلق لدى الطفل صفة الإيثار.

١١- يجب الاهتمام بالطفل عند مرضه، لأن كثيراً من الأخلاق السيئة تتولد نتيجة المرض المزمن مثل الجبن والأنانية والضيق والضحجر وعدم السيطرة على النفس والمشاعر وغيرها. بعض المرضى يطلبون من الآخرين الجلوس معهم، وبعضهم يصرخون على المارة من قريهم قائلين: ألا ترى؟ هل أنت أعمى؟ إن المرض المزمن يولد مثل هذه السيئات والسلوك السلبي. وبما أن الناس يسعون لتأمين الراحة للمريض أثناء مرضه لذلك فيرى

الطفل المريض حتى بعد شفائه أن من حقه أن ينال الراحة على الدوام.

١٢- يجب ألا يُحكى للطفل حكايات مرعبة لأنها ستولد لديه الجبن فلن يُقدم على الخطوات الشجاعة الباسلة عندما يكبر. ويجب أن تُحكى للطفل قصص عن الشجاعة إذا تولد لديه الجبن، ويُدفع إلى اللعب مع الأطفال الشجعان.

١٣- يجب ألا يُسمح للطفل باختيار أصدقائه بل ينبغي أن يتم ذلك من قبل الوالدين، فليختاروا من كانت أخلاقهم عالية. وسيستفيد الوالدان من هذا الاختيار بالتعرف على آباء الأطفال ذوي الأخلاق العالية، فيبدأ التعاون فيما بينهم، وعندما يوجه الوالدان أولادهم ليلعبوا مع الأطفال المختارين فلا بد أن يراقبوا أخلاقهم أيضا.

١٤- وينبغي أن يعهد للطفل وظائف تتناسب مع عمره، وهذا سيساعده في تولد الشعور بالمسؤولية لديه. هناك قصة مشهورة تقول: كان لشخص ابنان فدعاهما وناول أحدهما تفاحةً وطلب منه أن يقسمها بينه وبين

شقيقه، فلما أراد أن ينصرف مع التفاحة سأله والده هل تعرف كيفية التقسيم؟ قال: لا. قال له والده: يأخذ القاسم أقل ويعطى للآخر الزيادة. فلما سمع ابنه ذلك قال: إذا لا بد أن تعطىها لشقيقي! يبدو أن هذا الطفل قد سبق أن تعود على بعض السيئات، ولكنه كان يدرك في نفس الوقت أنه إذا أُلقيت هذه المسؤولية على عاتقه فلا بد أن يؤثر الآخر على نفسه. وهناك بعض الألعاب المفيدة لمعالجة هذه العادة السيئة منها كرة القدم وغيرها. ولكن يجب مراقبة الأطفال أثناء اللعب أيضا حتى لا يتعودوا على التصرف السيئ. ومما يلاحظ عموماً أن الوالدين يؤيدان موقف ولدهما ويجبران أولاد الآخرين على التسليم بموقف ابنهما مما يجعله متعنتاً ومتشبهاً بموقفه دوماً.

١٥- يجب أن يُرسخ في قلب الطفل فكرة أنه صالح ولطيف. لقد ذكر النبي الكريم ﷺ نكتة رائعة حيث قال ما معناه لا تشتموا أولادكم لأنه إذا شتم أحد ولده قال مَلِكٌ أن يكون كذلك فيصبح كذلك. يعني هذا الحديث أن الملائكة تظهر نتائج الأعمال، فإذا قيل للطفل إنك

سبى فإنه يرسخ في ذهنه هذه الصورة وفي النهاية يصبح كذلك. فيجب ألا يُشتم الولد بل يُعلّم أخلاقاً حميدة ويُمدح على محاسنه ويُشجّع.

جاءتني اليوم ابنتي الصغيرة تطلب مني بعض النقود، فلما أعطيتها مدّت يدها اليسرى لأخذها، فقلت لها هذا ليس صحيحاً. فانتهت وقالت نعم هذا خطأ ولن أفعله ثانية. فلما بُهتت شعرت فوراً بخطئها.

١٦- يجب ألا ينشأ عند الطفل سلوك العناد، فإذا عاند الطفل في أمر معين فعلاجه أن تحوّلوا انتباهه إلى شيء آخر، ثم حاولوا إزالة السبب الذي عاند لأجله.

١٧- يجب مخاطبة الولد بكل أدب، لأن الطفل يقلد أبويه، فلو خاطبتموه بقولك: أنت، فسيخاطبك بالطريقة نفسها.^{٢٣}

١٨- ينبغي تجنب الكذب والتكبر والكلام اللاذع أمام الطفل لأنه سوف يتعلم هذه الأمور. الوالدان عموماً يعلمان طفلهما الكذب، وذلك إذا فعلت الأم شيئاً

²³ علماً أن في اللغة الأردنية لا يجبذ أن يخاطب الطفل الكبار بقوله أنت بل

يجب أن يقول أنتم ولو كان المخاطب واحداً. (المترجم)

وسألها الأب ردّت بأنها لم تفعل ذلك، ومنها يتعلم الطفل الكذب. لا أقصد أن يتكلم الزوجان بمثل هذا الكلام في غياب الطفل، بل القصد منه أن من لا يستطيع تجنب هذه المعاييب في كل الأحوال فعلى الأقل يكون حذرًا من ارتكابها عند وجود الأطفال حتى لا ينتقل هذا المرض إلى الأجيال القادمة.

١٩- ينبغي إنقاذ الطفل من تعاطي أي نوع من المخدرات، لأنها تضعف أعصاب الأطفال. ومن يتعاطى المخدرات تنشأ لديه عادة الكذب والتقليد الأعمى. كان أحد أقارب الخليفة الأول عليه السلام مدمنا على المخدرات ولم يكن يهتم بالدين مطلقاً، فجاء في إحدى المرات بفتي معه وادعى أنه سيجعله مثله. قال له الخليفة الأول عليه السلام: يكفي أنك أفسدت نفسك فلا تفسده، إلا أنه لم يقلع عن إرادته. وفي إحدى المرات دعا الخليفة الأول عليه السلام الفتى وقال له لماذا لا تدرك خطورة الموقف بمرافقتك هذا الرجل الفاسد؟ لماذا لا تتعلّم حرفةً أو مهنة؟ ففهم هذا الفتى الأمر وتركه وهرب. ولكن جاء هذا الرجل بفتي آخر بعد فترة وقال للخليفة الأول: أفسده إن استطعت

الآن. كان يقصد من إفساده إخراجَه من سيطرته، فنصحَه الخليفة الأول رضي الله عنه كثيراً حتى عرض عليه مبلغاً من المال ليبدأ به عمله إلا أن ذلك الفتى لم يرضخ لقلوبه، فسأل الخليفة الأول رضي الله عنه قريبه هذا: ماذا فعلت به حتى لم يقبل مني أية نصيحة؟ فقال: هو يتعاطى المخدرات معي لذلك لم يعد يقوى على معارضتي وترك متابعتي. قصارى القول، إن الإدمان على المخدرات يسلب قوة الإقدام والعزيمة.

الكذب أخطر الأمراض لأن ذرائع نشوئه دقيقة جداً، فلا بد من إنقاذ الطفل من هذا المرض. وهناك بعض الأمور المؤذية التي ينشأ منها الكذب تلقائياً، مثلاً: بعض الأطفال يتمتعون بقوى دماغية عالية جداً، فيعتبرون كل ما يفكرون فيه أو يخطر ببالهم أمراً واقعياً وحقيقياً. كانت إحدى أخواتي تروي لنا في صغرها مناماً طويلاً كل يوم. وكنا نستغرب كيف يمكن أن ترى كل يوم مثل هذه الرؤى الطويلة، ثم عرفنا بعد ذلك أن كل ما يخطر ببالها قبل النوم كانت تعتبره مناماً. ففي بعض الأحيان يعتبر الطفل تخيُّله حقيقةً واقعيةً وهكذا يتعود رويداً رويداً على

الكذب. لذلك لا بد من إفهام الأطفال أن الخيال يختلف عن الحقيقة، إذا أدرك الطفل جيداً ماهية الخيال فيأمكنه تجنب الكذب.

٢٠- يجب منع الأطفال من أن يلعبوا في مكان منعزل.

٢١- ينبغي منعهم من التعرّي.

٢٢- يجب تعويد الأطفال على أن يعترفوا بخطئهم دوماً، وها هي بعض الطرق المؤدية إلى ذلك.

١- التزام الآباء بعدم التستر على أخطائهم أمام الأطفال.

٢- إذا أخطأ الطفل فيجب أن تتعاطفوا معه لدرجة يشعر بأن خسارة كبيرة لحقته لذلك يتعاطف معه أفراد عائلته، ويجب إفهام الطفل أن خطأه هذا أدى إلى هذا النوع من الخسارة.

٣- ومن أجل إنقاذ الطفل من الخطأ في المستقبل ينبغي التحدث إليه بطريقة يشعر بها أن تصرفه هذا قد آذى والديه وسبب لهما مشكلة كبيرة، مثلاً إذا ألقى تصرف الطفل ضرراً مادياً فيجب أداء قيمة هذا الضرر أمامه، هكذا سيفهم الطفل أن نتيجة الإضرار بالأشياء ليست

جيدة. لا شك أن الكفارة عقيدة فاسدة جداً لكن تطبيقها (على شكل تعويض) ضروري عندي لتربية الطفل على هذا النحو.

٤- إذا أردتم توبيخ الطفل فيجب أن يكون ذلك على انفراد.

٢٣- يجب تملك الطفل بعض المال مما يولد فيه الصفات التالية:

١- صفة التصدق

٢- التوفير

٣- مساعدة الأقارب، على سبيل المثال إذا كان الطفل يملك ثلاث بيسات^{٢٤} فيطلب منه أن يشتري ببيسة واحدة شيئاً ويُشرك الأولاد الآخرين في أكله، ويشتري بالثانية لعبةً له ويتصدق بالثالثة.

٢٤- يجب أن يكون هناك بعض الأشياء مشتركةً بين الأطفال، مثلاً يمكن أن يعطى لهم لعبة ما ويطلب منهم أن يلعبوا بها جميعاً لأنها ملك الجميع فلا يفسدها أحد،

²⁴ الروبية الواحدة تحتوي على ١٠٠ بيسة، وكانت تستخدم قديماً لما كان للبيسة قيمة مالية لا بأس بها، أما الآن فلا تساوي شيئاً. (المترجم)

وهكذا يتولد لديهم الحرص على المحافظة على الأملاك العامة.

٢٥- ينبغي تعليم الطفل الأخلاق والآداب الإنسانية بشكل مستمر.

٢٦- ينبغي مراعاة رياضة الطفل وتعويده على تحمل المشاق، لأن ذلك يفيد في إصلاح نفسه وفي رقيه الديني أيضاً.

خلاصة القول، لن يُعَدَّ الطفلُ أنه قد تلقى تربية حسنة وفق التعريف بالأخلاق والروحانية إلا إذا تحلى بما يلي:

- ١- أن يكون خلوفاً ويتمتع بالروحانية.
- ٢- يقدر على تحويل الآخرين ليكونوا مثله.
- ٣- يقدر على التقيد بقوانين الجماعة ونظامها.
- ٤- أن يكنّ لله تعالى حباً خالصاً يفوق حبه لأي إنسان أو أي شيء آخر.

فالمستوى المطلوب من الخاصية الأولى هو:

- ١- أنه عندما يكبر فيجب أن يطيع أوامر الشريعة لفظاً وعملاً واعتقاداً.

- ٢- أن تكون عزيمته قوية حتى لا يتعرض لفتنة وابتلاء في المستقبل.
- ٣- وينبغي أن يكون قادراً على كسب العيش والدفاع عن نفسه وحمايتها.
- ٤- ينبغي أن يكون ساعياً لحماية ممتلكاته وقادراً على ذلك.

والمستوى المطلوب من الخاصية الثانية هو:

- ١- ينبغي أن يكون قدوة حسنة في الأخلاق.
- ٢- أن يشارك في تربية الآخرين وتعليمهم.
- ٣- أن لا يضيع موارده بل يجب أن يستخدمها بأحسن وجه ليفيد بذلك الدين والجماعة.

والمستوى المطلوب من الخاصية الثالثة هو:

- ١- ينبغي أن يكون مهتماً بصحته.
- ٢- أن يكون محافظاً على أموال الجماعة وحقوقها.
- ٣- ينبغي ألا يفعل شيئاً يلحق به ضرراً بحقوق الآخرين.

- ٤- ينبغي أن يكون على استعداد لقبول جميع المكافآت والعقوبات التي قد يفرضها عليه المجتمع.

والمستوى المطلوب من الخاصية الرابعة هو:

- ١- ينبغي أن يجب كلام الله تعالى ويُكنَّ احترامًا لائقًا له.
 - ٢- إن مجرد اقتران اسم الله تعالى بموقف من المواقف يبعثه على التمسك به مع الاحترام اللائق به.
 - ٣- رغم عيشه في هذه الدنيا ينبغي أن يكون منقطعًا عنها كل الانقطاع.
 - ٤- يجب أن يظهر في شخصه سمات حبه لله.
- بعد ذكر الأمور المتعلقة بتربية الطفل بقي أن أجب على سؤال: كيف يمكن تخلص الأطفال من السيئات التي تولدت فيهم أو نشأوا عليه؟ وهذا ما سأتناوله غدًا إن شاء الله.